



# حماية الوطن في السنة النبوية

مقصد شرعي وضرورة مجتمعية

الندوة العلمية الدولية التاسعة

٤-٦ رجب ١٤٤٠هـ

١٢-١٤/٣/٢٠١٩م

بحوث الندوة محكمة

(الجزء الثاني)

الكتاب: حِمَايَةُ الْوَطَنِ فِي السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ مَقْصِدٌ شَرْعِيٌّ وَضَرُورَةٌ مُجْتَمَعِيَّةٌ

الرقم الدولي للكتاب: ISBN 978-9948-35-065-1

اللغة: العربية

التصنيف العمري: E

"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"

رقم إذن الطباعة: MF-01-1103844

تمت الطباعة في مطبعة دبي، دبي - أ.ع.م.

جميع الحقوق محفوظة

يُمنع نشر أو نقل هذا الكتاب أو أي جزء منه، بأي وسيلة من الوسائل الورقية أو الإلكترونية إلا بإذن خطي

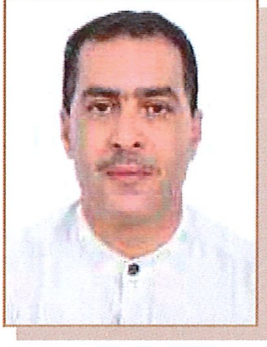
## الفهرس

٤٢١	- "الاعتدال الفكري وأثره في حماية الوطن دراسة تأصيلية في ضوء السنة النبوية". د. سعيد بن أحمد بوعصاف. (المغرب)
٤٥٩	- "قيمة المسؤولية وأثرها في تعزيز الأمن الوطني وحمايته،" دراسة في ضوء الهدى النبوي". د. ماريه بسام عابنه (الأردن).
٤٩٥	- "الهجرة في السنة النبوية، الحدث الأبرز في تعزيز مقومات حماية الأوطان". أ. لطيفة محمد علي الفارسي (الإمارات).
٥٣٩	- "طاعة ولاية الأمر في السنة النبوية وأثرها في الحماية الوطنية". د. مريم راشد التميمي (السعودية).
٥٧١	- "أثر طاعة ولي الأمر في حماية الوطن، (ضوابطها، أسسها، مقوماتها). دراسة تحليلية في السنة النبوية". أ. د. سلوى محمد الحمادي (السعودية).
٦٠٧	- "حماية الوطن رؤى مستقبلية وأبعاد استراتيجية في السنة النبوية". د. إبراهيم البرزنجي (العراق).
٦٣٥	- "كيف يُصنَعُ المواطن المنتمي والحامي للوطن؟ مسالك التنمية المركبة ودُّلُّ السُّنَّة النبويَّة". د. ناصر يوسف (الجزائر).
٦٨٥	- "استشراف المستقبل لعمارة الأوطان، وحمايتها كما تصوره السنة النبوية المباركة". د. علي حافظ السيد سليمان. (مصر).

٧١٥	- "التخطيط: استراتيجية نبوية لحماية الوطن". د.علي محمد أسمر أبوشحادة (الأردن).
٧٥١	- "حماية الأمن الوطني في السنة النبوية، مكافحة الفساد الإداري أمودجًا". أ.د عبد المحسن بن عبد الله التخيفي(السعودية).
٧٧٩	- "أثر سيادة القانون في حماية الوطن ومعالمها في السنّة النبويّة وإشكاليّاتها، دراسة تأصيليّة ونقدية".أ.مأمون محمد الدحيّم (الأردن).







## د. ناصر يوسف (الجزائر)

- حاصل على دكتوراه فلسفة في اقتصاد التنمية المقارن من جامعة ملايا بماليزيا، ٢٠٠٨ م.
- محرر ومشرف ورئيس قسم الكتب بوحدة النشر العلمي، الجامعة الإسلامية العالمية ماليزيا.
- آخر ما صدر له من كتب: «مسالك التنمية المركّبة: الأنموذج الياباني والمستقبل العربي».
- البريد الإلكتروني: youcef.nasser@gmail.com

## بحثه بعنوان:

**«كيف يُصنَعُ المواطن المنتمي والحامي للوطن؟»  
مسالك التنمية المركّبة وذُلُّ السُّنة النبويّة».**

## من أجمل فقرات البحث:

«إن تتبّع أثر السُّنة النبويّة فيما يتعلق بتربية المواطن على حب وطنه والإخلاص له وتنميته وإعمارهِ وحمايته، نراه يحقق الكثير من الفوائد في مجتمع يعاني من الانقسامات في الداخل، والتهديدات في الخارج؛ ففي السُّنة النبويّة علامات واضحات تُخبر بأهمية التضامن والإخاء والإيثار في التحام أوطان ممزقة، والاهتمام بمواطن محروم».

كيف يُصنَعُ المواطنُ المنتمي والهامي للوطن؟  
مسالكُ التميّة المركة وذُلُّ السُّنة النبوية

الدكتور / ناصر يوسف (الجزائر)

رئيس قسم الكتب بوحدة النشر العلمي-الجامعة الإسلامية العالمية ماليزيا



## مقدمة

يستدعي حب الوطن توافر فعل الانتماء من منطلق أنه إذا لم يكن الإنسان منتمياً قد لا يكون محباً؛ فمن يحب أن يفنى في محبوه ويدافع عنه ويحميه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً؛ حتى إذا انتمى المواطن إلى الوطن فإنه ينتمي إليه انتماء المتفانين في حبه غير الظانين برجالاته ظن السوء؛ ما يستدعي الإخلاص له وللقائمين عليه، والذب عنه وما حواليه. إذا حماية الشيء تشترط حب الشيء والانتماء إليه، لاسيما إذا كان هذا الشيء من نضح الأرض بعد أن استقر في حضن الوطن.

وإذا إن الحبَّ افتقارٌ وأملٌ في امتلاك؛ فإن حبَّ الشيء الذي افتقده الإنسان في طفولته، يشترط امتلاكه للشيء وهو في ريعان شبابه وافتتانه برجولته. كما أن حماية الشيء تشترط امتلاك الشيء؛ ومن ثم فإن حبَّ الشيء يدفع الإنسان غريزياً -وشرعياً- إلى حمايته، علاوة على أن الرسول ﷺ قدّم درساً تاريخياً وحضارياً في حب الوطن والشوق إليه والتعلق به، والعمل على إصلاحه وإعمارهِ وتنميته، والإحسان إلى أهله؛ إذ قال الرسول ﷺ عن بلده مكة التي غادرها مكرهاً وقد أُخرج منها: (وَاللَّهِ إِنَّكَ لَخَيْرُ أَرْضِ اللَّهِ، وَأَحَبُّ أَرْضِ اللَّهِ إِلَى اللَّهِ، وَلَوْلَا أَنِّي أُخْرِجْتُ مِنْكَ مَا خَرَجْتُ).<sup>(١)</sup>

طبعاً، هناك تسلسل منطقي بين حبَّ الشيء وحمايته. هذا الحبُّ للشيء يقترن بمدى امتلاكه وتوظيفه والانتفاع به والإفادة منه، ومن ثم الدفاع عنه ضد القاصي منه والداني متى استدعت الحاجة إلى ذلك؛ إذ يعد صاحبه شهيداً، سواء أكان هذا الشيء الممتلك عرضاً أم أرضاً أم بيتاً أم مالاً أم وطناً؛ تعزّزه السنّة النبويّة؛ فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو (رضي الله عنه) قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: (مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ).<sup>(٢)</sup>

١- أخرجه الترمذي في سننه وصحّحه، كتاب المناقب عن رسول الله ﷺ، باب في فضل مكة، رقم ٣٩٢٥، ٢٠٧/٦.

٢- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المظالم، باب من قاتل دون ماله، رقم ٢٤٨٠، ١٣٦/٣.

من وجهة أخرى، فإن الوطن غرس بيئي طيب؛ حيث يعد المواطن ثمرة هذا الغرس الطيب. وإذا يأتي الغرس طيباً، فإن الثمرة تأتي هي الأخرى طيبة؛ حيث إن الطيبة صفة ملازمة للوطن على مرّ العصور والدهور. وإذا كان للإنسان أن ينتقل ويتقلب إلى درجة خيانة الوطن؛ فإن الوطن لا ينتقل؛ لأنه بيئة وأرض، ولا يتقلب؛ بل يبقى صامداً يحتضن الإنسان ولا يمتنه، وإن هو خانته أو أهانه. فالوطن هو الذي يحمي الإنسان من شر ضيره وغدر غيره.

وقد تعلمون أن الإنسان له قابلية غريزية للخيانة إذا شعر أنه يفتقد الشيء ولا يمتلكه، وهو يرى أن هذا الشيء مشاع للجميع (=العامة)؛ لكنه متاع رفيع لا يبلغه إلا من ارتفع (=السلطة) أو اندفع (=النخبة). ومع ذلك فإن الإنسان لا يخون عندما يكون موصولاً بربه؛ فالخيانة مقرونة بالمنافق المنفصل عن مجتمع المسلمين؛ لأن من علامات المنافق خيانة الأمانة؛ فعن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: (آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا أُؤْتِمِنَ خَانَ).<sup>(١)</sup> إن الوطن أمانة، وخيانتته نفاق ومروق من الصف المرصوص. ومع ذلك إذا كان المواطن المنتمي معارضاً للقيادة؛ فإنه لا يعد بالضرورة خائناً للسيادة.

من هذه القابلية للخيانة باتت مسألة كيفية حماية الأوطان مسألة مثارة بشدة للنقاش، وعصية على الحل لدى صنّاع القرار ممن أصابت أوطانهم مصيبة الإرهاب والعذاب، لا سيما في وقتنا الراهن؛ حيث تكثُر الأزمات والفتن التي ترهق من في قلبه مرض، وتقلق من في عقله غرض. لقد بات الوطن في عصر العولمة معرضاً للخيانة وفاقداً للحماية من مواطن ضعيف الابتغاء وقليل الانتماء، قد يفقد ولاءه الوطني لأسباب شيعية ومعرفية ودينية. وعليه نجزم أنه لا يمكن الحديث عن الوطن وحمايته وإيجاد الحلول له من غير التطرق إلى الثلاثية الإنسانية: السلطة والعامة والنخبة، التي تعد مسؤولة عن الوطن وحمايته بحكم القيادة أو الإفادة أو الريادة.

نحتاج بأن ثلاثة عناصر رئيسة، الناس فيها شركاء، هي التي تحفظ الوطن: الشيء، والدين، والمعرفة (=ش، د، م)، كما نعتقد أن هذه العناصر إذا ما اشتطت على الإنسان واستعصت على التنمية، قد تكون سبباً في تعاسة الوطن وبؤس المواطن. كما سندافع عن فرضيتنا القائلة بأن تركيب السلطة والعامة والنخبة (=س، ع، ن) فيه تركيب للوطن وحمايته، علاوة على أنه مسلك من

١- رواه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب علامة المنافق، رقم ٣٣، ١٦/١.



## كيف يُصنعُ المواطنُ المنتمي والحامي للوطن؟ ...

مسالك صناعة المواطن المنتمي حامي الوطن من الفتن. وإذ يحصل التوزيع الإنمائي العادل للشيء والدين والمعرفة على مستوى أطراف المجتمع من غير استثناء؛ فإنه يسهل صنع المواطن المنتمي المركب. إن التركيب الإنساني هو الذي يحمي؛ بينما المنتمي الإنمائي هو الذي ينمي.

نجادل، أيضًا، بأن الدين يحفظ الوطن؛ إذ إن حفظ الدين من حفظ الوطن، وإن الإنسان المبتغي لهذا الدين هو إنسان منتم للوطن؛ إلا إذا كان فهم هذا الإنسان للدين فهمًا مختلفًا يرقى إلى مرتبة الخلاف مع الأمة التي قد لا تجتمع على خطأ. فَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ دِينَارٍ، عَنْ ابْنِ عُمرَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَجْمَعُ أُمَّتِي أَوْ قَالَ: أُمَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ عَلَى ضَلَالَةٍ، وَيَدُّ اللَّهُ مَعَ الْجَمَاعَةِ وَمَنْ شَدَّ شَدَّ إِلَى النَّارِ).<sup>(١)</sup> وعليه فإن الانتماء للوطن يشترط حصول الدين في حياة الإنسان الخاصة والعامة عبادةً ومعاملةً؛ لأن ابتغاء دين الوطن يقوِّي من الانتماء للوطن ويحميه، وذلك نظرًا إلى أن المنتمي للوطن هو إنسان يُفترض أن يتراحم مع دينه، أو يحترم دين غيره في مجتمع متعدد الأديان والأعراق والمذاهب، أو يكون فيه شيء من الدين الذي يكبح جماح رغبته في الخيانة والتمرد والعنف؛ حيث إن اللامنتمي هو إنسان متمرد على دينه ووطنه. ويفترض في مسألة التخطيط لحماية الوطن واستشراف مستقبله، أن يكون الدين لباس (س، ع، ن). هذه الثلاثية الإنسانية قد لا يحصل لها الاستمرار في الاستقرار إلا بالتراحم مع الدين كحالة طبيعية، أو احترامه من غير التضيق عليه، أو الرفق بالإنسان الذي اتسع له.

كما ندفع بالقول إن الدين لا يكفي بمفرده لتأسيس دولة وترصيص أمة، لأن الوطن لا يُحفظ بالدين وحده؛ فذلك رهان خاسر أثبت الاستعمار عدم التعويل عليه إذا أتى معزولاً عن حامله ومفصولاً عن محموله، لاسيما إذا كان هذا الدين يحمله إنسان خامل غير فاعل، أو سافل غير عاقل، أو مكافح غير مسامح. يكون حامل الدين نافعًا للأمة وللعالم إذا كان يسير جنبًا لجنب مع التنمية؛ وذلك برهان كوني وسني مبسوط في صفحات التاريخ والأحداث والوقائع، تشهد على ذلك الحضارة العربية والإسلامية التي وصلت بتوأم الدين والتنمية إلى قيادة شطر كبير من العالم في فترة وجيزة وعزيزة.

١- أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الفتن، باب ما جاء في لزوم الجماعة، رقم ٢١٦٧، ٣٩/٤.

فرضيتنا تقف على أن الوطن يُستعصى حفظه وحمايته من غير تنمية مركّبة. إن كل الدول المتخلفة وإن تديّنت فقد استبيحت أوطانها كما حدث مع الاستعمار القديم والحديث كليهما؛ فالاستعمار القديم استباحها بمنطق الشيء رمز القوة الغاشمة؛ أما الاستعمار الجديد فيستبيحها بمنطق المعرفة علامة القوة الناعمة. وفي كلتا الحالتين يكون الدين هو الضحيّة والجاني معاً؛ ضحيّة عندما يُنعت بأنه سبب بئس في التخلف، وجانٍ عندما يُنعت بأنه سبب تعيس في العنف؛ إلا أن الخاسر الأكبر هو الوطن الذي تصيبه لعنة الانقسامات فتفشل الدولة في إدارة الأزمات. وإذا تعد الدولة القوية رمز الوطن المتماسك؛ فإن "أول ما يقع الهرم في الدولة انقسامها"<sup>(١)</sup>.

ومن هنا سنناقش إشكالية مفادها أن التركيب -أو الترتيب- الإنساني يحمي، والمواطن المنتمي ينمي؛ ولكن المواطن لا يكون منتمياً ومنمياً وحامياً إلا إذا شعر بالعدالة؛ حيث إن العدالة تُتّرح من نسيج التركيب الإنساني الإنمائي. فإن لم يكن الإنسان مركّباً لا يكون عادلاً، وإذا لا يكون عادلاً فإنه لا يكون متّقياً لقوله تعالى: ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ (المائدة: ٨). إن في التقوى مسالك مدلّلة للحفظ والوقاية والحماية؛ ~~فالمال~~ يتقي بقي. وعليه سنقف على أن المواطن المنتمي هو المواطن المركّب إنسانياً على مستوى (س، ع، ن)، والعدل إنمائياً في محتوى (ش، د، م).

وعلى الرغم من أن هناك كتابات سابقة وعابقة، عاجلت مسائل التنمية وبناء الإنسان وحماية الأوطان؛ إلا أن مصطلح (التنمية المركّبة) هو من نسجنا، ولم نطلع عليه في الأولين؛ حيث انكبنا على استقصاء معنى التنمية المركّبة وأهميتها ومؤشّراتها ومخرجاتها بعد أن أحطناها بالتحليل واستقريناها بالتعليل في مشروع إنمائي نعكف عليه ونستكشف ما فيه، وقد خلصنا منه، للآن، إلى ثلاثة كتب<sup>(٢)</sup> تطرقت إلى الدينامية، والمسالك، والتجسيم. وهذا البحث هو استمرار لما جاء

١- مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٩٩٩م، ج١، ص٢٩٢.

٢- انظر كتبنا: دينامية التجربة اليابانية في التنمية المركّبة: دراسة مقارنة بالجزائر وماليزيا، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط١، ٢٠١٠م؛ مسالك التنمية المركّبة: الأنموذج الياباني والمستقبل العربي، هيرندن، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط١، ١٤٤٠هـ/٢٠١٩م؛ التجسيم الحضاري من منظور التنمية المركّبة: دراسة نقدية تطبيقية لمشروع مالك بن نبي، الرياض: دار نماء للبحوث والدراسات، ط١، ١٤٣٩هـ/٢٠١٨م.

كيف يُصنعُ المواطنُ المنتمي والحامي للوطن؟ ...

في كتبنا السابقة؛ إلا أنه يقارب بين المسالك الإنمائية والإنسانية، وبين الدال الربانية والنبوية، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿فَأَسْلِكْ سُبُلَ رَبِّكِ ذُلَالًا﴾ (النحل: ٦٩)؛ حيث تكون الجماعة الإنسانية المركبة أشبه بخلية النحل الفاعلة والعاملة. وعليه فإن الجدة العلمية لهذا البحث تكمن في كيفية الإفادة من السنة النبوية ومدى أهمية تعزيزها لفرضية التنمية المركبة التي فيها خير الوطن والمواطن، والإشادة بها على مستوى النص والحدث، وإن بشكل مختصر؛ عسى أن يولد هذا البحث، الذي يجمع بين فصوص التنمية المركبة ونصوص السنة النبوية، كتاباً مقروءاً يكون أكثر توازناً، وأحكم تفصيلاً، وأعمق تحليلاً، وأرجح حكماً، وأوسع نفعاً.

### أولاً: التنمية المركبة: المقصود والمرصود والمنشود

١- ما المقصود بالتنمية المركبة؟ وكيف تعزز نصوص السنة النبوية هذا المفهوم الإنمائي؟

إن في السنة النبوية ما يقرب الفهم، لدى العامة والخاصة، من مراد التنمية المركبة؛ فهي البنيان المرصود الذي لا يخترقه الأعداء، وذلك تراكباً مع قوله ﷺ: (الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ، يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا)<sup>(١)</sup> حيث إن الحشرات لا تنحشر خلال الجدران إلا بعد أن تتشقق ويصيبها التصدع. فكلما كان البنيان مرصوفاً، كان أهل البيت أو الوطن في منعة من العدو أو الخائن أو المنافق. علاوة على أن التنمية المركبة تتشوف إلى حصول إجماع إنساني من القوم داخل الوطن لحبه أكثر وحمايته بشكل أفضل، وهم ثلاثة: سلطة، وعامة، ونخبة؛ حتى يكونوا يداً واحدة، ويرموا أعداءهم عن قوس واحد، إذا هم هبوا دفاعاً عن الوطن والمواطن في موقعة الحرب، أو قاموا لخدمة الوطن وتنميته في معركة السلم. إن التنمية المختزلة في سلطة ونخبة دون العامة هي تنمية قاصية وعصية، تستبعد المواطن وتهدد الوطن؛ فلا تقيمه أو تحميه؛ بل تكون مطمعاً للمتربصين الدوائر، والمتحينين لفرص الانقضاض على الأوطان الممزقة بتمزيق نسيجها الاجتماعي والاقتصادي لقوله ﷺ: (فَعَلَيْكَ بِالْجَمَاعَةِ، فَإِنَّمَا يَأْكُلُ الذُّبُّ الْقَاصِيَةَ)<sup>(٢)</sup>.

١- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب تعاون المؤمنين بعضهم بعضاً، رقم ٦٠٢٦، ١٢/٨.

٢- أخرجه أبو داود في سننه بإسناد حسن، كتاب الصلاة، باب في التشديد في ترك الجماعة، رقم ٥٤٧، ٢١٤/١.



إن في السُّنَّة النبويَّة أقوالاً وأفعالاً سبق أن دعت إلى التركيب الإنساني؛ فَعَنِ النَّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهْرِ وَالْحُمَى).<sup>(١)</sup> إن التركيب الإنساني هنا هو شكل من أشكال التضامن والتكافل والنصرة والحماية، وقد تجسَّد هذا التركيب في عصر الرسول ﷺ، وكان الصحابة رضوان الله عنهم خير من جسَّد ذلك وفعلَه في مجتمع يثرب الذي كان يعاني من القبليَّة والافتتال ومهانة الإنسان لأتفه الأسباب؛ حيث عاجلت السُّنَّة النبويَّة هذا الوضع المأسوي، فغيَّرت الأسوأ إلى الأحسن، وغيَّرت كل فعل قبيح قد يكون سبباً في إذلال الإنسان؛ في ممتلكاته الوطنية والنفسيَّة والجسديَّة، وذلك باتِّباع ما جاء في تعاليم الرسول ﷺ؛ حيث قال: (بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعَرَضُهُ).<sup>(٢)</sup>

من وجهة أخرى كان النبي ﷺ بوصفه القائد الأعلى، يحرص كل الحرص على الأخذ برأي الأمة، وعلى رأسها النخبة، ويستشيرها في أمور دنيويَّة؛ ففي غزوة ضد الوطن يثرب، عُذَّت خطيئة وهي غزوة الأحزاب، ألقى الرسول ﷺ السمعَ إلى أحد النخبة في مجتمع يثرب، الذي نصح بحفر خندق لمواجهة الأعداء وحماية الوطن، فكان الأخذ بالرأي أحد الأسباب في ميل المعركة لصالح المؤمنين المركَّبين؛ إذ أشار سلمان الفارسي عليه السلام إلى حفر الخندق كما كانت تفعل فارس إذا حوصرت واشتدَّ عليها الخطب؛ حتى أن الرسول ﷺ قد كافأه بأن جعله من أهل البيت الطيِّين؛ حيث جاء في السيرة النبويَّة عن ابن هشام: "حدثني بعض أهل العلم، أن المهاجرين يوم الخندق، قالوا سلمان منا، وقالت الأنصار، سلمان منا، فقال الرسول ﷺ: سلمان منا أهل البيت".<sup>(٣)</sup>

الأنبياء يبدؤون بقلة فيعانون، وينتهون إلى كثرة فلا يهانون. كانت العامة التي تتبعهم وتركب معهم مهمَّة لهم ولنجاح دعوتهم وخططهم واستراتيجيتهم، وذلك مهما كان مستواها التعليمي

١- أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، رقم ٢٥٨٦، ٢٠/٨.

٢- أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره، رقم ٢٥٦٤، ١٠/٨.

٣- لمزيد التفصيل، انظر: اجتهاد الرسول ﷺ، نادية شريف العمري، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط ٢، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م، ص ٩٥.

كيف يُصنع المواطن المنتمي والحامي للوطن؟ ...

أو المادي أو الاجتماعي؛ حيث رفض الأنبياء أن يتردوا أتباعهم لإرضاء عليّة القوم؛ كما صوّر ذلك القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَزَّلَكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَزَّلَكَ أَنْبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّى الرَّأْيِ وَمَا نَزَّلَكَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ (٢٧: هود). فالرسول ﷺ لم يترد أتباعه مثله مثل الأنبياء من قبل، فقد كان رحيماً بهم وحكيماً في تربيّتهم؛ حتى صاروا سادة العالم وقادته. وأن ما جاء في (سورة عبس) يعزّز التركيب الإنساني، ولا يهمل أي عضو في المجتمع يريد أن يحمي وطنه ويخدمه في دينه وقادته ونخبته وعامته. فقد جاء في تفسير الآيات الأولى من سورة عبس أن الرسول ﷺ انشغل بمحادثة قوم من أشرف قريش كان يطمع في إسلامهم، ولما أقبل عليه عبد الله بن مكتوم، اعتقد الرسول ﷺ أنه سيقطع عليه كلامه فأعرض عنه، وتدور الأيام دورتها ليكون عبد الله بن مكتوم ﷺ مستخلفاً على المدينة وحاميها بأمر من الرسول ﷺ، وفي هذا تكريم عظيم لعبد الله بن مكتوم، ينم عن محبة الرسول ﷺ لأصحابه الذين يحبونه ويرغبون في التركيب معه، لإنجاح الدعوة وتنمية المجتمع تنميةً مستقيمة بالمواطن، ومستديمة لأجل الوطن.

هؤلاء القلة أصبحوا كثرة؛ تركّبوا وكونوا أمة مرصوصة لا تُهان أمام إنسان مركّب يكون ندّاً لها؛ حيث إن تركيبهم الإنساني بحس تركيباً إنمائياً. وإذ يبدأ الرسل مهمتهم الدعوية بالتركيب الإنساني؛ فإن الرسول ﷺ بدأ دعوته سرّاً وفي هذا تركيب أسري، ثم جهري وفي هذا تركيب مجتمعي، إلى أن شمل الوطن يثرب ليتمد خارجه؛ فكان أن أتى تركيباً عالمياً نهض بالمواطن وحفظ الوطن وحماه، ومن ثم احتضن دولاً كانت بلا تنمية فنمت واغتنت. إن التركيب الإنساني كما ألفتناه في السيرة النبويّة وسيرة الصحابة ﷺ، يعد وسيلة أصيلة ونبيلة لبناء وطن يُشيد على أسس صحيحة من تلقاء ترصيصه الإنساني القويم؛ بحيث يحرسه التوحيد (=الدين)، وتقيمه العدالة (=التنمية)، ويديمه الاستخلاف (=الإنسان).

نجزم أن التركيب الإنساني كان سبباً عجباً في التركيب الإنمائي لدى الأمم الناجحة التي استعادت وعيها الحضاري المفقود بعد أن اكتشفت أسرار التركيب الإنساني وأهميته الإنمائية، وهذا ما حصل بامتياز في زمن الرعيل الإسلامي الأول الذي سلك هدي النبي ﷺ، واقتدى بأقواله الحميدة، ووقف على أفعاله الرشيدة؛ فقد دعا ﷺ إلى الالتزام بالجماعة في قوله: (وَيَدُ اللَّهِ مَعَ

الْجَمَاعَةِ).<sup>(١)</sup> من عمق هذا الترتيب، تحصل التنمية المركبة إنسانياً قبل أي تركيب شيءي آخر. إن المواطن المسؤول والمنتمي للوطن والحامي له، يكون أولاً في أية معادلة إنمائية؛ ثم التنمية المتساعل عنها والمحصلة وطنياً، تكون ثانياً أو ثالثاً.

تأسيساً على ما قرّرناه ووفقاً لما بسطناه بشكل موجز من سيرة الرسول ﷺ مع أتباعه النخبة والعامّة؛ فإننا لا نعني بالتنمية المركبة القول بأنها التنمية الشاملة، أو أنها شكل من أشكالها؛ أي تشميل الاقتصادي بالسياسي، والاجتماعي بالثقافي؛ فهذا تعريف لا يعيننا، نظراً إلى أن التنمية الشاملة هي تحصيل حاصل للتنمية المركبة، وإلا جاءت تنمية فاشلة وليست شاملة.

فالتنمية المركبة إذا تُستهلّ بالمواطن الموجود، وتسهّل بالشيء غير المفقود. وإذا لا يكون المواطن حراً مسؤولاً؛ فإنه لا معنى للحديث عن التنمية المركبة. إن الحرية المسؤولة، بوصفها قيمة حضارية، هي الشرط الأول لتفعيل وجودية المواطن وانتمائه الوطني وجاهزيته لحماية وطنه. الحرية المسؤولة قيمة إنمائية إذا أخذت بها أمة من الأمم، تكون إذا قد شارفت التنمية المركبة، واستشرفت مستقبل الإنسان والأوطان.

قصدنا بالتنمية المركبة كل ما بدأ بتنمية المواطن أولاً. وإذا تُستهلّ التنمية المركبة بالسلطة بوصفها إنساناً مواطناً، والعامّة بوصفها إنساناً مواطناً، والنخبة بوصفها إنساناً مواطناً [التنمية المركبة = سلطة + عامّة + نخبة]؛ فإن هذه التنمية المركبة أو ما شاكلها، كانت موجودة قبل حصول التخلف ووصول الاستعمار؛ لكن التخلف الذي كان له قابلية للاستعمار قد فكّكها واختزلها، وشثّت جهود المواطن كلما فكّر في حماية وطنه من هذا العبث الاستعماري وإرثه؛ حيث إن الاستعمار هو أعلى أشكال التخلف. إن الاستعمار -أو التخلف- الذي يحرم الإنسان الحر من حقّه في الوجود الإنمائي هو قيمة غير مسؤولة، تبثّ في إنسان القابلية للتخلف روح اللامسؤولية واللائتماء. وإذا تركن الأوطان إلى الحرمان؛ فإنها تنفصل عن التنمية المركبة وما تصل.

قد تعلمون أن الاستعمار كان سبباً رئيساً وبئيساً وتعيساً فيما وصلت إليه الأوطان العربية والإسلامية من اختزال إنساني وابتذال إنمائي وانتصال عن الوطنية حتى لا يحمي وطنه بشكل مركّب. فالاستعمار ماضٍ ولّى؛ ولكنه حاضر معيش استولى على المستقبل، وحلّ المختزل محلّه.

١- سبق تخريجه.



كيف يُصنعُ المواطنُ المنتمي والحامي للوطن؟ ...

لقد فكَّك الحرمان الذي هو شكل أعلى من أشكال الاستعمار كل ما يمتُّ للتنمية المركَّبة من صلة. وإذا يعد الحرمان أشدَّ خطرًا من غياب الحرية؛ فإن للحرمان مستويات: حرمان امتلاكٍ لأسباب بيولوجية لا يؤدي الإنسان الزاهد الذي رضي بالقضاء، وحرمان قدرةٍ لأسباب اجتماعية يؤلم الإنسان الرائد القادر على العطاء؛ حيث يعد حرمان القدرات صناعة استعمارية غير مسؤولة.

أتى حين من الدهر كانت فيه التنمية المركَّبة هي سر خروج العرب من البداوة إلى الحضارة؛ فأقبل الاستعمار يسعى لإخراج العرب من الحضارة -وهم قد خرجوا بأنفسهم لأسباب داخلية- ليغرقهم في البداوة بفعل قابليتهم وجاهزيتهم لكل ما يمت بصلة للكسل الإنساني والفشل الإنمائي.

لنفرض جدلاً مع أنصار الاستعمار أنه المستعمر جاء بالتنمية؛ إلا أنها أتت تنمية مختزلة ومفكَّكة ومنضغطة، وهو نفسه الحرمان الناجم من التوزيع غير العادل. لقد وزَّع الاستعمارُ الشيءَ والدينَ والمعرفةَ (=ش، د، م) توزيعاً شططاً على السلطة والعامة والنخبة (=س، ع، ن)؛ وتلك إذاً قسمة ضيزى، استمر سلطانها نشطاً في معظم دول ما بعد الاستعمار التي أزهقها الاختزال وأزهقها.

افترضنا أن التنمية المركَّبة حصلت في لحظة زمنية معطاءة استفادت منها أجيال ذلك العصر؛ ولكن لما جاء التخلف ومخلفاته من استعمار، حصلت التنمية المختزلة التي تأسست زمن الاستعمار وتأسست في دول ما بعد الاستعمار؛ إذ لا يزال المواطن يعاني من قسمتها غير العادلة؛ وهذا كله ليس في مصلحة الوطن الذي يصيبه العنف والتمرد والثورات جراء ذلك.

- كيف حدث هذا التقسيم المختزل؟

ما هو معلوم أن السلطة تمتلك (الشيء) جاهزاً أو مجهَّزاً؛ فهو جاهزٌ تحت الأرض كثرورات طبيعية ومعديّة، أو مجهَّزٌ على شكل تكنولوجيا ما فوق الأرض يأتي مستورداً حيناً ومجاناً حيناً آخر من الناجحين إلى الفاشلين لأسباب إيديولوجية. وبهذا الشيء الذي لا تمتلكه السلطة امتلاك المبتكرين له، تدخل السلطة حقل التنمية وتشارك في عوائده إن لم تستحوذ عليه كله. تدخل السلطة التنمية بشيء لا تنتجه بشكل مباشر؛ ومن ثم فإن هذا الدخول إلى حقل التنمية هو دخول غير مسؤول فيه الكثير من الاحتكار للشيء، وليس فيه أدنى لمسة من الابتكار. إنه من

غير هذا الشيء تفقد السلطة سلطتها. ومن هنا تصر السلطة على الاحتفاظ بهذا الشيء لنفسها وتحتزله في دائرتها، ولا يصل إلا القليل منه للعامة والنخبة. كل ذلك يحصل على عكس ما حصل مع (الغنيمة) التي كانت تمثل (الشيء) الممتلك لعهد الرسول ﷺ وعصور الخلفاء الراشدين، ومن صار على منوالهم من أمراء الإسلام والمسلمين؛ حيث كان هذا الشيء قائماً على التسوية لأن السلطة والعامة والنخبة فيه شركاء. لقد كان "النبي ﷺ يسوي بين الناس في قسم الغنيمة، ولا يفضل فيه أحداً على أحد: لشرف، ولا لشجاعة، ولا لقدم هجرة، ولا غير ذلك من الصفات الحمودة. وكان أبو بكر وعلي (رضي الله عنهما) يريان التسوية بين الناس في العطاء، ولا يفضلان بسابقة ولا غيرها".<sup>(١)</sup> كما روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال في عطايا حماة الوطن من سلطة وعامة ونخبة: "لئن كثر المال لأفرض لكل واحد أربعة آلاف درهم: ألفاً لفرسه، وألفاً لسلاحه، وألفاً لسفره، وألفاً يخلفها عن أهله".<sup>(٢)</sup>

من وجهة أخرى، تمتلك النخبة (المعرفة)، وفي الغالب هي معرفة غير بيئية ومنفصلة عن اهتمامات المواطن وحاجات الوطن، كونها معرفة منبئة ومنفصلة عن جذورها الحضارية وبلا تاريخانية. تدخل هذه النخبة -المتنفذة في المجتمع- إلى ساحة التنمية دخولاً غير مسؤول هو الآخر. إنه من غير هذه المعرفة اللابيئية تفقد النخبة المنفصلة عن المجتمع حظوتها. ومن هنا تضطر هذه النخبة المتعائلة إلى الاحتفاظ بمعرفة هي خليط بين الإيمان والعلمانية، قد لا يفيد منها العامة في شيء. إن هذه المعرفة غير البيئية التي لا تضيف للبيئة ولا تفيض على الوطن، تحتزل في دائرة النخبة؛ لأنها مفصولة عن العامة التي لا تفقه فيها، علاوة على أن السلطة تتعامل بهذه المعرفة على أنها مجرد ترف معرفي يسعد النخبة نفسها وبيهجها، ويبعد العامة من حقل التنمية ويقصيها؛ فلا تحمي السلطة والنخبة وطنها إذا حصل مكروه. إن المعرفة السيئة والشيئية غير البيئية التي تسعد النخبة وتشتقي العامة، هي خطر داهم على الوطن والمواطن. لقد حذر الرسول ﷺ من هذه المعرفة الجاهلة بحاجات المواطن واحتياجات الوطن، والتي تنشط في غياب المعرفة العالمة أو

١- تحرير الأحكام في تدبير أهل الإسلام ويلييه مقدمة أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، بدر الدين محمد بن إبراهيم بن جماعة، تحقيق أحمد فريد المزيدي ومحمد حسن إسماعيل الشافعي، بيروت: دار الكتب العلمية، ط ١، ٢٠٠٣م، ص ٤٤.

٢- أبو الحسن الماوردي، الأحكام السلطانية، تحقيق وتعليق عبد الرحمن عميرة، القاهرة، دار الاعتصام، د. ت.، ج ٢، ص ٤٢٢-٤٢٣.

كيف يُصنع المواطن المنتمي والحامي للوطن؟ ...

موت أصحابها؛ إذ صحَّ عن الرسول ﷺ: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ الْعِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤُوسًا جُهَالًا، فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا).<sup>(١)</sup>

في الجانب الآخر، تمتلك العامة (الدين) لكونها أغلبية ومتديّنة بطبعها، علاوة على أن السلطة تغازلها دينيًا في مناسبات حاسمات مثل الانتخابات والحروب والثورات؛ ولكن هذا الدين الذي اختزل عمداً في العامة - واستبعد من السلطة والنخبة عمداً أيضاً لأسباب إيديولوجية علمانية - هو دين غير مفعّل في حقل التنمية، وغير مستثمر. وما هو غير مفعّل فهو غير معوّل عليه. هذا اللاتفعيل ناجم من الحرمان؛ ما يحرم العامة من المشاركة في ساحة التنمية، وهو حرمان غير مسؤول أيضاً، يجعل العامة المحرومة غير مسؤولة عن حماية وطنها. هذا الاختزال للدين في العامة أدى إلى استبعاد السلطة والنخبة من الدين، كما أدى إلى تعطيل جهود العامة نتيجة عدم تفعيل الدين - الذي تملكه - في ساحة التنمية. وهذا التعطيل نراه يحصل في ظل تملّص النخبة من أداء مسؤوليتها التي قد تصل إلى درجة الجهل بحال العامة؛ فعن أبي هريرة قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (إِنَّهَا سَتَأْتِي عَلَى النَّاسِ سِنُونَ خَدَاعَةٌ يُصَدَّقُ فِيهَا الْكَاذِبُ وَيُكْذَبُ فِيهَا الصَّادِقُ، وَيُؤْتَمَنُ فِيهَا الْخَائِنُ وَيَخُونُ فِيهَا الْأَمِينُ، وَيَنْطَقُ فِيهَا الرُّؤْيِيَّةُ. قِيلَ: وَمَا الرُّؤْيِيَّةُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: السَّفِيهَةُ يَتَكَلَّمُ فِي أَمْرِ الْعَامَّةِ).<sup>(٢)</sup>

هذا التقسيم المختزل يختزن بداخله حرماناً جماعياً وإن أتى متفاوتاً؛ فالسلطة التي تملك الشيء نراها محرومة من الدين والمعرفة، والنخبة التي تملك المعرفة نلغيها محرومة من الشيء والدين، والعامة التي تملك الدين تكون محرومة من الشيء والمعرفة، ومحرومة أيضاً من تفعيل ما تملك من دين. كل هؤلاء الثلاثة (س، ع، ن) يتقاسمون الحرمان بأشكال مؤسسية ومأسوية.

نفترض في التنمية المركبة أن هناك ثلاث دوائر: دائرة السلطة، ودائرة العامة، ودائرة النخبة؛ دائرة تعلق دائرة لتكوّن بناءً حلزونيّاً عمودياً، تعلو دائرة السلطة، وتتوسطه دائرة النخبة، وتستقر أسفله دائرة العامة.

١- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب كيف يقبض العلم، رقم ١٠٠، ٣١/١.

٢- صحّحه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة، رقم ١٨٨٧، ٤/٥٠٨-٥٠٩.



في زمن الاستعمار؛ حيث التأسيس للتنمية المختزلة، كانت الدوائر الثلاث دائرة واحدة منضغطة ومتداخلة؛ الكل فيها سواء، وهي أقرب إلى التكديس؛ فلا أحد من العناصر الثلاثة -السلطة والعامة والنخبة- مسؤول عن البعض أو منتم للاستعمار؛ لأن الاستعمار حشر نفسه في وضعية المسؤول عن الثلاثة المهمشين، وعدّ نفسه منتمياً للأرض المغتصبة وحامياً لها؛ ومتى كان الاستعمار مسؤولاً ومنتمياً وحامياً؟ إنه في غياب المسؤولية والانتماء لا تحصل تنمية. إذاً اللامسؤولية والانتماء إرثان استعماريان، ومن يقف عليهما لا يجلب تنمية أبداً أو غداً.

ما بعد الاستعمار؛ تأسست التنمية المختزلة، وحدث انفراج في الدائرة المنضغطة بحكم الاستقلال؛ فاستحالت إلى دوائر ثلاث؛ حيث يحصل انفصال بين السلطة والعامة والنخبة، ومن ثم تستقل كل دائرة بنفسها بحيث يعلو بعضها بعضاً كالبنيان المهزوز غير المرصوص؛ فلا تنشغل بحماية الوطن وتنميته، بل تنشغل بأهوائها وملذاتها. وهذا لأن النخبة تعلّمت ووعت فيكون دورها إما أن تنصح السلطة أو تهدأها؛ ولكن في غياب الحرية المسؤولة تكون درجة النصيح أقل من درجة المهادنة، وفي المهادنة خراب الوطن بله حمايته. هذا الاختزال الإنمائي غير المسؤول بين السلطة والنخبة، تكون العامة ضحية له بوصفها مواطناً لا يستفيد من عوائد التنمية، لأن السلطة لا تسمع إلى النخبة نظراً إلى أن السلطة شكل أعلى من أشكال النخبة؛ فتختزل الشيء في دائرتها وتنسبه لنفسها؛ فلا تكون حماية الوطن لديها إلا بقدر ما تمتلك. أما النخبة فتتأفف من العيش مع العامة ومخالطتها لأنها تراها غير متحضرة؛ فتختزل المعرفة في دائرتها وتحتكرها لأنها لا تبتكرها. وكل هذا يرجع إلى تلاشي الحس الإنمائي والفشل الإنمائي وغياب الحرية المسؤولة التي هي من مخلفات الإرث الاستعماري، التي تفكك أي تفكير جماعي يتوجه نحو حماية الوطن واستعادته من غير شروط. وعليه فإن البنيان الإنمائي المختزل والهش وغير المرصوص قائم على دائرتين متصارعتين ومتصدعتين، هما: السلطة والنخبة، يستفيدان بمفردهما من التنمية، وقد تكونان عالة على حماية الوطن إذا أصابه مكروه؛ أما العامة فتخرج صفر اليدين، لأن الدين الذي يمتلكه لا زال غائباً عن ساحة التنمية في ظل حضور شيء السلطة ومعرفة النخبة اللذين بهما تدخلان ساحة التنمية وتفيد من عوائدها، ومن ثم تغيب العامة عن المشاركة في التنمية والإفادة المباشرة من فوائدها. إن عوائد التنمية وفوائدها تُختزل في السلطة إلى حد كبير، وفي النخبة إلى حد ما، وتُحرّم منها العامة؛ حيث إن في الحرمان تنعدم الحماية لشيء هي محرومة منه.

كيف يُصنَع المواطن المنتمي والحامي للوطن؟ ...

### - كيف يحصل تفادي التقسيم المختزل؟ وما هي مؤشراتته؟

في حالة تراجع الإرث الاستعماري غير المسؤول وغير المنتمي، وحضور المسؤولية الوطنية التي هي مسؤولية بيئية؛ في ظل ذلك كله يحصل الترخيص الإنساني والإنمائي بين السلطة والعامّة والنخبة (=س، ع، ن). وإن لم تحضر قيم المسؤولية الحضارية وقيم الانتماء الوطني وغيرها من القيم، فلن يحصل الترخيص. وإذا استُبعد الإرث الاستعماري، اتَّحد (س، ن) وكانا في خدمة العامة (ع)؛ فتسهل حماية الوطن مهما كانت صلابة أساليب الأعداء والطامعين.

هذا التركيب الإنساني والإنمائي بوصفه خلاصة التنمية المركبة، يحصل في إطار الدين الذي تمتلكه العامة، ويتوجَّس الإرث الاستعماري منه خيفة. فالعامّة هي الأكثرية، علاوة على أنها الأكثر تهميشاً إنسانياً وإنمائياً؛ ما ينعكس هذا الاستبعاد للعامّة من المشروعات الإنمائية سلبيًا على المواطن والوطن؛ فتتكفئ وتراجع، وتتضاءل وتقل بحجم أقلية السلطة والنخبة المستفيدة مقارنة بأكثرية العامة المستبعدة؛ وفقاً للحديث المشهور حول القلّة والكثرة؛ فعَنْ ثَوْبَانَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا، فَقَالَ قَائِلٌ: وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ، قَالَ: بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ، وَلَيَنْزِعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُذُورِ عَدُوِّكُمْ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ، وَلَيَقْدِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ، فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ: حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ).<sup>(١)</sup>

نعتقد أن الدين هو الذي يحوّل القلّة إلى كثرة، لا سيما أن القليل في الكثير كثير. فالقلّة في زمن الرعيل العربي والإسلامي الأول كانت كثيرة بانتصاراتها وإنجازاتها وآليات تحضرها وحماية أوطانها؛ لأنه لم يكن للشيء حضور في تشكيل وعيها الإنساني ورسم مسارها الإنمائي؛ بل كان الشيء في شكل غنيمة يعد طريقاً إلى الدعوة والتحضر، وإذا انتفت الحرب غابت الغنيمة وحضرت الدعوة؛ حيث إن الدعوة حاضرة في كل الأحوال، والغنيمة ليست حاضرة في كل حال. وذلك بخلاف ما نراه منذ قرون من كثرة غنائية شيئية لا تستجلب النفع لنفسها ولأوطانها كما جاء في الحديث النبوي الذي سقناه أعلاه، نظراً إلى الحضور السلبي للشيء في واقع الإنسان وغياب

١- أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الملاحم، باب في تداعي الأمم على الإسلام، رقم ٤٢٩٧، ١٨٤/٤. صحّحه الألباني في الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير)، رقم ٨١٨٣، ١٣٥٩/٢.



القيم الكابحة له؛ إذ إن هذا الغناء هو الشيء الذي يتحوّل إلى جفاء فلا ينفع الإنسان الذي كان مستمسكاً به ومركباً معه. إن التركيب الإنساني-الإنمائي الأصل تجلّى في أبهى صوره في الفترة التي نزل فيها الوحي وزاد عليها قليلاً، وكان التركيب يتكرّر في محطات تاريخية.. إنه واقع لا مفر من نكرانه؛ حيث أسهم الدين في تشكيله بوعي سليم ساعد على حماية الأوطان من كيد الكائدين.

إنه بتوظيف الدين في التنمية تكون للعامة مكانة أو دور في التنمية؛ لأنها تشارك في التنمية بالدين الذي لا تمتلك غيره. ومع ذلك فعلى العامة أيضاً أن تمتلك الشيء والمعرفة بجهودها وبميزد من التعليم لها ولأبنائها، كي تدخل إلى التنمية وتشارك فيها بشكل إيجابي مركّب غير مختزل، يحمي الوطن ويجرس الثغرات. على النخبة والسلطة، أيضاً، أن تتصفا بالدين وتتراحما معه، كي تدير التنمية باقتدار ومسؤولية، يكون فيها الكثير من احترام العامة المتديّنة، وذلك بتقدير جهودها، وعدم بخسها حقها في عوائد التنمية وفوائدها. إذاً يفترض تبادل الشيء والدين والمعرفة (=ش، د، م) بين الدوائر الثلاث (=س، ع، ن) لحصول تنمية مركّبة، ومن ثم تفادي التقسيم المختزل على أقل تقدير.

قد لا تكمن المشكلة في السلطة والنخبة والعامة فهي مُنشئ طبيعي، إلا أن المعضلة تكمن في المعرفة والشيء؛ فهما بمثابة المنشأ الاصطناعي. بينما القيم الدينية العاملة قد تكون وسيطاً فاعلاً بين المنشئ والمنشأ، الطبيعي والاصطناعي؛ ما يجعل العامة المركوزة في الدين ذات ثقل وأهمية. إن احترام العامة وعدم حرمانها من المشاركة في التنمية والإفادة منها، يجعل الدين اللصيق بالعامة وسيطاً وسطاً؛ وإلا كان المنشئ الطبيعي أمره فرطاً، والمنشأ الاصطناعي أكثر شططاً.

أما مؤشرات تفادي التقسيم المختزل للمواطن (=س، ع، ن) لحصول تنمية مركّبة، فهي على النحو الآتي:

- مواطن متحرّر من سلطة الشيء؛ لأن الشيء تحصل له قيمة مدّرة إذا كانت له سلطة على الإنسان. فسلطة الشيء والتعلق به على حساب الوطن مثلاً؛ يجعل مسألة الحماية ليست من أولويات هذا المواطن المغلوب على أمره بفعل غلبة الشيء عليه.
- مواطن بوصفه موجوداً بقيم الحرية المسؤولة؛ إذ إنه في غياب هذه الحرية يعدم الإنسان الوجود

## كيف يُصنَعُ المواطن المنتمي والحامي للوطن؟ ...

المعنوي، ويعجز عن الإبداع، بل ويعجز أيضاً عن حماية وطنه إذا وقعت واقعة الحروب وادهلهمت الفتن.

- الشيء بوصفه مفقوداً ليست له سلطة على المواطن الموجود؛ لأن الشيء في الأصل كان مفقوداً، وبفعل جهد الإنسان بات موجوداً؛ لأن المواطن عندما يطمئن للشيء الموجود، الذي لم يكن سبباً في إيجادهِ؛ فإنه يتناقل عن أداء الواجب الوطني، ويعجزه هذا الشيء الجاهز عن الدفاع عن الوطن وحمايته؛ فيستحيل عميلاً ومنافقاً وخائناً.
- وإذا يعد الشيء الجاهز أو المجهز طاقة تؤثر سلباً في المواطن والدين؛ فإنه يفترض عدم التعلق به والارتكان إليه، لأن للشيء وقعاً مادياً خالصاً، بينما للإنسان أو الدين وقع معنوي. إن القابض على دينه - كما يُقبَضُ على الجمر - هو المعوّل عليه في حماية الوطن.
- دين متحرّر من سلطة المواطن؛ لأن الإنسان ثانياً والدين أولاً، نظراً إلى أن الدين هو الذي يحمي الوطن، وليس الإنسان الذي هو تحصيل تربية دينية.
- حيث توجد هُويّة المواطن توجد تنمية الوطن؛ إذ يمكن مراجعة سجلات الأمم الناجحة التي سلكت هذا المسلك الهُووي لتدليل سبل التنمية.
- كل استدامة تستدعي استقامة، والقيم أن تقيم الشيء مستقيماً؛ حيث إن القيم التي تقيم الشيء مستقيماً هي قيم العبودية، فالعبادة تعد أول مسالك التنمية التي تكبح قيم الحرية المنفلتة، وتذل المسالك أمام الحرية المسؤولة والواعية.
- معرفة ليست لها سلطة على الدين؛ لأن المعرفة ليست بيئية أو وطنية كلها، بينما الدين بيئي علاوة على أنه يحرس المواطن والوطن.
- التخطيط لمستقبل إنمائي يتراحم فيه الشيء والدين والمعرفة والوقت الإضافي؛ لأنه في ظل الاشتغال في دائرة الوقت الإضافي، يعني أن الجهود تتشوّف إلى الأفضل، وليس أمامها الوقت الكافي للصراعات وحصول انقسامات.

## ٢- المرصود من القرآن الكريم والسنة النبوية وتجارب الأمم

قد تعلمون أن التركيب فعل إنساني تاريخي، وما يهمنا طبعاً التاريخ العربي والإسلامي؛ حيث إن أول ما حصل التركيب حصل في يثرب؛ فتركبت السلطة والعامّة والنخبة (=س، ع، ن). الرسول ﷺ بوصفه سلطة، والصحابة بوصفهم نخبة، وباقي المسلمين بوصفه عامة؛ إذ كلهم مواطنون، أنصار ومهاجرون.

التركيب الإنساني هو مفهوم مدني يعبر عن التضامن والإخاء والإيثار والتعاون والحماية، ومن ثم هو مفهوم إنساني إنمائي، نستشفه من قول الرسول ﷺ: (الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ، يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا).<sup>(١)</sup> بعد تجربة ثرية انتقل هذا التركيب الإنساني إلى تركيب إنمائي وحضاري وعسكري واستراتيجي يحمي المواطن والوطن لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا كَانَتْهُمْ بَنِينَ مَرْصُوصِينَ﴾ (الصف: ٤). لقد حصل هذا التحول الناجح بامتياز في غزوة بدر التاريخية، ثم في غزوة أحد المشهورة؛ حيث خالف رماة الجبل أوامر النبي ﷺ، فتصدّع البنيان المرصوص إلى حدّ ما. لقد تجسّد التركيب في غزوة بدر فانتصروا؛ بينما حصل الاختزال في غزوة أحد فانكسروا.

لقد جاء الحرص الإسلامي على البنيان المرصوص في المعارك المدنية الإنمائية والعسكرية التوسعية؛ إذ ما فتى التركيب يلهم الأمم كما رأينا في يثرب؛ حيث التزمت السلطة في شخص الرسول ﷺ بالمسؤولية والتراحم؛ فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (أَلَا كُتُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَالْإِمَامُ الَّذِي عَلَى النَّاسِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ عَلَى أَهْلِ بَيْتِ زَوْجِهَا وَوَلَدِهِ وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْهُمْ، وَعَبْدُ الرَّجُلِ رَاعٍ عَلَى مَالِ سَيِّدِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُ، أَلَا فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ).<sup>(٢)</sup>

١- سبق تخريجه.

٢- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأحكام، باب وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ (النساء: ٥٩)، رقم ٧١٣٨، ٣٣٠/٤.

كيف يُصنعُ المواطنُ المنتمي والحامي للوطن؟ ...

لقد احتفظ التركيب بمفهومه الإنساني الإنمائي الذي يتكرّر يوميًا بخلاف مفهومه العسكري الذي لا يتكرّر دائمًا؛ لأن الحروب العسكرية ليست يومية. طبعًا مثل هذا التركيب الإنساني الذي نبغيه إنمائيًا ونستدعيه من واقع السُّنة النبويّة، لا تربطه علاقة بالشيء. لقد كان هناك إنسان ودينيًا في عصر الرعيل الإسلامي الأول الذي تَرَى على يد الرسول ﷺ؛ وهي عناصر البناء. إنسان يلتحم مع إنسان مثله بحيث يكون الدين هو اللُحمة التي تسدُّ ثغرات هذا البنيان الذي إن التحم دينيًا سمي بنيانًا مرصوصًا. وإذ نلفي البنيان هو الإنسان؛ فإن المرصّص هو الدين؛ ومن ثم فإنه من غير ترصيص الوطن بالدين لا يكون للحماية أثر.

من وجهة أخرى أكثر أهمية، نحاول أن نعزّز الجانب النظري من بحثنا بنماذج تطبيقية مستقاة من القرآن الكريم، ومستوحاة من السُّنة النبويّة، ومختارات من أحداث التاريخ. لقد ألهمتنا الآية الكريمة في تقسيم القوم إلى قسمين؛ قسم متراص يغيّر ما بنفسه إذ لا ترصيص من غير تغيير (القوم)، وقسم مختزل يعبر عما بنفسه فيبتعد من سُنّة التغيير فتكون وبالأعلى عليه، كما جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ (الرعد: ١١). إن هناك فريقًا أول يغيّر ما بنفسه نحو الأحسن كما هو في الشطر الأول من الآية الكريمة: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (١١)، وهذا الفريق الأحسن ينمي نفسه وينمي غيره، وهذه هي التنمية المستدامة التي تفيد منها الأجيال على الأقل لمدة مائة وعشرين سنة وفق حسابات ابن خلدون؛ إنه تغيير مركّب من السلطة والنخبة والعامة (س، ع، ن)، وهم القوم جميعهم.

علينا أن نتفق على أن التركيب لن يحصل من غير تغيير؛ فالتركيب تركيبان، كما أن التغيير تغييران. تركيب إنساني حسن، وتركيب إنمائي أحسن؛ أما التغيير فتغيير حسن يكون على مستوى القوم كلهم، وهو نفسه (التغيير ما بالنفس) كما جاء في الشطر الأول من الآية الآتية الذكر، وتغيير سيّء يكون على مستوى الفئة المؤثرة غير المنتمية، وهو نفسه (التعبير عما بالنفس) كما جاء في الشطر الثاني من الآية: ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ (الرعد: ١١).



- نماذج حسنة عن تغيير المواطن ما بنفسه وتركيبه إنسانياً وإنمائياً لإعمار الوطن وحمايته

- قوم يونس عليه السلام لما تغيروا تركبوا؛ فانتفعوا لقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَنُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُوَسُّوْنَ لِمَآ ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ ءَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ (يونس: ٩٨)؛ فبعد أن نجَّاه الله من الحوت، حدث تغيير حسن على مستوى (القوم) ابتداءً من القائد السلطة الذي هو النبي يونس عليه السلام، والنخبة من أصحابه، والعامّة من الناس الذين اتبعوه؛ فهو ترخيص نافع كانت ثمرته تنمية طيبة للجميع، ورفع الضنك والخزي عنهم.

- مجتمع يوسف عليه السلام؛ تغير الملك بعد تأويل المنام، ثم تغيرت زوجته، فخرج يوسف من السجن، وتغير إخوته لمواجهة السنين العجاف فسمنت أعوامهم. إن تفسير الرؤيا ﴿سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعٌ سُئِلَتْ خُضْرٍ وَأُخْرَىٰ يُاسِئَاتٍ﴾ (يوسف: ٤٦)، قد التزم بها (القوم)؛ فسلخوا طريق التقشف جميعهم، على مستوى الملك السلطة، والنخبة التي يقودها يوسف عليه السلام، والعامّة من الناس.

- ملأ بلقيس لما استشارتهم كلهم، تغيروا فتركبوا فلم يهلكوا لقوله تعالى: ﴿قَالَتْ يَأْثَرُهَا الْمَلَأُ أَفْتُونٍ فِي أَمْرٍ مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ (النمل: ٣٢). لقد استشارت بلقيس (الملأ) من النخبة والعامّة قبل الإقدام على التغيير الكبير في حياتهم؛ فاتفق رأيهم مع رأيها.

- قوم الأوس والخزرج لما تغيروا تركبوا، فانتفت بينهم العداوة؛ فخرجوا من البداوة إلى الحضارة. في نموذج يشرب، حصل التغيير على مستوى أقوام مبدعة تاريخياً ذابوا في اسم الأنصار، واستقام الترخيص بحضور الرسول ﷺ والنخبة من الصحابة وعامّة الناس. وقد تجلّت صور التركيب في أول قدوم للرسول ﷺ إلى المدينة، وسطعت في حادثة البيعة المشهورة؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ (الفتح: ١٨).

- فترة عمر بن عبد العزيز رحمته الله جاءت بعد فترة بئيسة في حياة المسلمين؛ فزهد عمر واقتدى به العامّة والنخبة. لقد قضى عمر على الفساد المالي والاجتماعي، وجرد نفسه وأسرته من كل ما يتعلق بالتعبير عما بالنفس من خلجات وشهوات ولذات، فغير العامّة ما بأنفسهم اقتداء

كيف يُصنعُ المواطنُ المنتمي والحامي للوطن؟ ...

بقائدهم؛ حتى أن الخوارج نزلوا من الجبال إذ جنحوا للسلم فنجحوا، وتجاوز معهم عمر حيث أقنعهم فتجاوزوا، ومن ثم كان عام التركيب والجماعة.

ولا شك في أن هناك نماذج تاريخية كثيرة يفترض الاقتداء بها في التركيب الإنساني والإنمائي.

- نماذج سيئة عن تعبير المواطن عما بنفسه واختزاله إنسانياً وإنمائياً مآله خراب الوطن:

لقد اختار الفريق الثاني التعبير عما بنفسه من تمرد وعصيان وانشقاق؛ فانطبق عليه الشطر الثاني من الآية الكريمة ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ يَقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ (١١) (الرعد: ١١)؛ فلم يأت التغيير مركباً بل جاء مختزلاً، كما هو مبسوط في الآتي:

- الفئة الفاسدة والمؤثرة اختزلت حياتها في السخرية من نوح عليه السلام؛ فجاءهم الطوفان وفاجأهم، ﴿وَقِيلَ بَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (٤٤) (هود: ٤٤). في قصة قوم نوح عليه السلام، نلني التغيير يحدث على مستوى أتباع نوح النبي القائد وهم قلة قليلة، حيث إن شطراً عظيماً من القيادة والنخبة والعامة رفض التغيير والترصيص؛ فكان الطوفان -الذي يأتي على كل تنمية من القواعد- هو عاقبة هذا العصيان من قوم نوح الظالمين لأنفسهم، وهم يرفضون الترصيص مع نوح عليه السلام ومن تبعه من عامة الناس.

- الفئة الفاسدة والمؤثرة اختزلت حياتها في المنكرات، ورأت أن الطهارة أمر لا يليق بها؛ فأحجمت عن التركيب مع لوط عليه السلام؛ فكان صبحهم قريباً: ﴿أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ (٨١) (هود: ٨١). لقد تفتن قوم لوط عليه السلام في التعبير عما بالنفوس من شهوات بلغت أشدها، فلم يستجيبوا لنبيهم وقائدهم واعتبروا الترصيص معه ليس في مصلحتهم؛ فكانت النتيجة مطر السوء، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّنْظَهُرُونَ﴾ (٨٢) فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَايِينَ (٨٣) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَأَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٨٤) (الأعراف: ٨٢-٨٤).

- فرعون والفئة الفاسدة والمؤثرة اختزلوا حياتهم في الاستخفاف بقومهم فكان اليوم المشهود،

﴿يَسْأَلُ الرَّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾ (٩٩: هود). لقد استخفَّ قومه ورفض الترتيب مع موسى عليه السلام؛ فكان التعبير عما بالنفس - من بطش وملاحقات وعدوان - نتيجة الغرق له ولقومه ﴿يَسْتَفِرُّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا﴾ (١٠٣: الإسراء).

وهناك حالات أكثر جاءت في سورة الأعراف وسجلات التاريخ والوقائع ليس هذا مقام التفصيل فيها.

### ٣- المنشود من التنمية المركبة: في استقامة المواطن تنمية للوطن وحماية له

قد تعلمون أن (الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها)؛<sup>(١)</sup> وعليه فإن مشاكل الوطن والمواطن لا تحل إلا بالحكمة؛ لأن التنمية حكمة ينشدها عقلاء الأمة وبصراؤها، وذلك بوعيهم وسعيهم. التنمية المركبة حكمة لأنها من صنع نبي أو حكيم، من صنع فيلسوف أو مفكر، من صنع مصلح أو مثقف. وفي كل الأحوال هي من إبداع ثلاثة لا نرى لها تحتها رابعا، هم: سلطة وعامة ونخبة (=س، ع، ن). تركبوا على وعي، وسعوا إلى حل مشاكلهم بلا عي ولا غي؛ مثلما هو الحال مع الإنسان المواطن في اليابان وأمم الغرب وبلاد الآسيان.

وإذا تنقص المواطن الحكمة؛ فإنه ينقصه الوعي. وإذا تنقص الوطن التنمية؛ فإن المواطن ينقصه السعي. فليس كل من سعى وعي؛ ولكن كل من وعى سعى. إن الذي سعى احتكم إلى السنن الكونية والإلهية كما احتكم إليها الأنبياء من قبل، وعلى رأسهم نبينا ﷺ؛ هذا النبي الذي لقي ما لقي، وعانى ما عانى، وقاسى ما قاسى؛ ومع ذلك حفظ ووعى، سمع فسعى. وإن الذي سعى، أيضا، قد نَمَى السنن العجاف وحوّلها إلى سمان كما فعل يوسف عليه السلام؛ فقد وعى الأزمة وسعى إلى حلها بالتعفف حينًا، وبالتقشف حينًا آخر.

إن قولنا (ليس كل من سعى وعى) ينطبق عليه قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ (١٠٤: الكهف)، وهذا ما يفترض من المواطن تجنّبه. وأما كل (من وعى سعى) ينطبق عليه قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى﴾ (٨) ﴿وَهُوَ يَخْشَى﴾ (٩) (عبس: ٨-٩). فالخشية وعي بالأمر الجلل، والسعي إلى تجاوزه والتغلب عليه وتحويله من جلال في الحياة إلى أمل في النجاة.

١- قول مأثور.



كيف يُصنعُ المواطنُ المنتمي والحامي للوطن؟ ...

ومثل هذا السعي الذي يسبقه الوعي، هو ما ينبغي على المواطن التحلي به وركوب صعبه للظفر بوطن مكتمل الأركان إنسانيًا وإنمائيًا؛ لأن الوعي بالمسألة جزء من حلها، والجزء الباقي من حلها هو السعي إلى حلها. منطقيًا حل الأزمات وتجاوز الفتن، يشترط حصول السعي والوعي معًا.

إن ذلك الرجل الذي جاء من أقصى المدينة يسعى لخير المواطن والوطن، كان على وعي برسالة موسى عليه السلام؛ فنجاه هو ومن استجاب لتحذيره. أما فرعون الذي جاء يسعى لقتال موسى وإيقاعه في الشر لم يكن على وعي برسالة موسى عليه السلام، فاستخفَّ بعظمة البحر وخطورته، ومن ثم أغرق نفسه وأهلك جنده.

والمنشود أن تنمية الرجل المواطن الذي انتمى إلى الوطن وحماه، كانت تنمية واعية مستقيمة؛ لأن تنميته أتت تنمية ساعية مستديمة. أما تنمية فرعون الذي اختصر الوطن في دائرته وقزّم المواطن في حاشيته، لم تأت تنميته ساعية مستديمة، فخرّب الوطن؛ لأن تنميته لم تكن تنمية واعية مستقيمة.

إذا الوعي بالشيء وخطورته أمر مهم لتحصيل تنمية مركبة مستديمة لا تحزن في منتصف الطريق. إن منتصف الطريق هو من شرّد المواطن وما أرشده، وهو من أوهه وجوّعه ثم ضيّعه. هذا الجليل البئيس التعيس رسم منتصف الطريق الآخر بنفسه فأتى طريقًا بئيسًا تعيسًا؛ جاء طريقًا ضائعًا مائعًا. لقد عبّدوا الطريق بأنفسهم وما أصلحوه، وعبّدوا على كيفهم من غير وعي؛ فتشدّدوا وتشرّدوا وتمدّدوا وبدّدوا، ثم تبدّدوا؛ ولا شيء بعد ذلك غير السراب؛ وهل بعد السراب إلا الخراب؟ وإذا تأتّى دنياهم سرايا؛ فمن الطبيعي أن تأتّى آخرتهم خرابًا.

من وجهة أخرى، نرى أن المواطن (=السلطة) قد يُعذّب بالشيء مرتين؛ مرّةً عندما يحتكر (الشيء) لنفسه فلا يعدل في توزيعه فيفقر غيره، ويزيجهم من دائرة الانتماء، ومن ثم يسعى اللامنتّمون إلى تطبيق العدالة على كيفهم من غير وعي منهم؛ فيخرّبون أوطانهم بأيديهم. ومرّةً عندما لا يحسن هذا المواطنُ السلطةُ التصرفَ في الشيء فيُشقي نفسه وغيره؛ فلا تحصل تنمية مستديمة أبدًا؛ إذ من أحشاء الشقاء والفقر يجبل المواطن المنتمي بفجوره وبجوره، وينسل وييسل؛ فتأتي فكرة حماية الوطن من الأعداء فكرةً عقيمة غير مستحسنة.



والمنشود أيضاً مما أوردناه آنفاً، أن هؤلاء اللامتممين والمتفردين، يفترض أن يواجهوا بإنسان مركب وتنمية مركبة؛ بحيث يُمنح لكل ذي حق حقه، ولا يبخس جهده، وأن لا يشعر المواطن بالاستبعاد من وطنه، والالانتماء إليه. صحيح أن الإنسان والشيء يصنعان تنمية قد تستقيم؛ ولكن الإنسان والشيء قد يصرعان التنمية فلا تستديم، من منطلق قوله تعالى: ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَقَابِلِ﴾ (آل عمران: ١٤). إذا لزم المواطن الواعي سواء أكان سلطة أم عامة أم نخبة إلى (الباقيات الصالحات) حول الشهوات إلى تنميات مستديمات، وانطبق عليه قول القائل: أعلاه مشر وأسفله مغدق. فإذا كانت التنمية مستقيمة فهي مثمرة، وإذا أتت التنمية مستديمة فهي مغدقة.

إن (حب الدنيا) ينبجس من مستنقع التنمية غير المستقيمة التي هي زينة الحياة الدنيا بشهواتها وهفواتها. ومن تغريه هذه التنمية يلقي نفسه معارضاً للدين؛ لأن الدين يكبح التنمية إن هي أزيّت أو خرجت للعامة في زينتها لتغريها بشهواتها. ولهذا فإن دين العامة في استبعاد مستديم، وكل من يطالب بتوظيف الدين في التنمية يُستبعد هو الآخر، نظراً إلى أن الدين يلطف من التنمية بالعدالة إن هي اشتطت وتطرقت. إن التنمية المتطرقة التي تصيب الوطن والمواطن، تجعل المواطن يتعلّق بالحياة ويتطرف مع غيره ممن يذكره بآخرته. وكما يرجع ضياع الوطن والمواطن إلى التدني المتطرف الذي يتعلّق قلب صاحبه بالآخرة ويهمل الدنيا التي فيها معاشه ووطنه - إذ في مثل هؤلاء الذين يرفضون من هو على غير شاكلتهم ويلفظونه، قال فيهم الرسول ﷺ: (إِنَّ الدِّينَ يُسْرُ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ، فَسَدُّوا وَقَارِبُوا، وَأَبْشُرُوا، وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ، وَشَيْءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ)<sup>(١)</sup> - فإن ضياع الوطن والمواطن يعود أيضاً إلى التنمية المتطرقة التي يتعلّق صاحبها بالدنيا فيحبها حباً جمّاً، تجعله مترقفاً؛ ما قد يُعجزه عن الذود عن دينه ووطنه؛ حيث نجد في السُّنة النبوية ما يحذر المواطن المسلم من تبعات هذا الحب لشهوات التنمية غير المستقيمة في فجورها وبجورها، كما جاء في حديث الرسول ﷺ حول حب الدنيا وكرهية الموت الذي سبق وأن أشرنا إليه آنفاً. لقد كان الرسول ﷺ بوصفه سلطة ينصح للمواطن بخاصة وللإنسان بعامة، فيثمره وينضجه،

١ - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الدين يسر، رقم ٣٩، ١٧/١.

كيف يُصنعُ المواطنُ المنتمي والحامي للوطن؟ ...

وهذا هو حال السلطة والنخبة مع العامة كما تجلّى ذلك في قوله ﷺ: (الدِّينُ النَّصِيحَةُ، قُلْنَا: لِمَنْ؟ قَالَ: لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأُمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ).<sup>(١)</sup> وكان الرسول ﷺ يفسح في الإحسان فيُفرق ويُعَدِّق، كما كان يجرّض المواطنين على ذلك، قائلاً ﷺ: (لَيْسَ الْمُؤْمِنُ بِالَّذِي يَشْبَعُ وَجَارُهُ جَائِعٌ)<sup>(٢)</sup> وهذا هو حال السلطة الرحيمة والنخبة المتراحة مع العامة.

إذا الوعي المقرون بالسعي يفضي إلى التركيب، والسعي من غير وعي يؤدي إلى الاختزال؛ فبالتركيب حصلت حضارة عربية وإسلامية أغنت العالم وأغرته، وبالتركيب أيضاً خرج العرب من البداوة إلى الحضارة، من اللانتماء إلى الانتماء. وعليه ففي التركيب ترتيبٌ وتقريبٌ وتجدُّدٌ وانتماءٌ وحماية، وفي الاختزال اعتلالٌ واختلالٌ وتمرُّدٌ وخرابٌ ووصاية.

إذا كان الابتغاء الديني يجعل الواحد كلاً، مثل إبراهيم عليه السلام؛ فإن الانتماء الوطني يجعل الكل واحداً مثل التعايش العرقي في ماليزيا وسنغافورة ونماذج عرقية عالمية أخرى ناجحة ومتسامحة، لأن التنمية التي يستفيد منها الأعراق في ماليزيا - مثلاً - وحدهم وطنياً، وجعلت كلهم المختلف واحداً غير مخالف. إن الاختلاف يكون في المعنويات مثل الدين لأن المواطن هنا يستعيد ماضيه لحاضره؛ بينما في الماديات لا يكون هناك مخالف لأن المواطن يستفيد من حاضره لمستقبله. وهنا يأتي دور التنمية في الحفاظ على الوطن من الفتن، ومن ثم الاستعداد الذاتي لحمايته. إبراهيم عليه السلام كان أمةً من غير أن يتركّب مع آخرين كانوا مركّبين ب: (شيء) آخر، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً ۖ﴾ (النحل: ١٢٠). لقد كان إبراهيم عليه السلام يمثل الجزء بالمفهوم المادي وهو نفسه الكثير بالمفهوم الديني. أيضاً ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً ۖ﴾ (البقرة: ٢١٣)، لكنهم اختلفوا حول الشيء فدعروا منه ثم ابدعوا؛ فالناس هم جزء بتفرقهم حول (الشيء)، والأمة كثرة بتفاهمها حول طبيعة الشيء المادية وخطورته الاختزالية. يكمن سر تفرّق الناس في هذا (الشيء) الذي يشيء الإنسان ويفكّكه، فيصير الشيء هو الكثرة والناس هم القلة، فلا يكثر الناس إلا بالشيء كثرةً شيعيةً غنائيةً، وما ذلك بكثرة بها قوة، بل قلة بها ضعف؛ ما يجعل التركيب غير متوازن يميل إلى التفكيك كلما اقتضت الحاجة. أما سر وحدة الناس وتركيبهم في شكل أمة فيكمن في الإنسان

١ - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون، رقم ٥٥، ٥٣/١.

٢ - أخرجه البخاري في الأدب المفرد، باب لا يشبع دون جاره، رقم ١١٢، وهو حديث صحيح بشواهده، صحّحه الألباني في صحيح الأدب المفرد (١٤٩/٦٧).

نفسه الذي يبدع الشيء بنفسه فيكون في خدمة الإنسان الذي من نوعه، من غير أن يكون هذا الشيء عنصراً في التركيب؛ وإنما يأخذ مكان الشاهد المادي على حيوية التركيب الإنساني واستدامته. فكلما كانت الأشياء المادية حاضرة ومبدعة ومبتكرة، كانت التنمية المركبة شاهدة على التراص الإنساني الذي لا تغريه زينة الأشياء، ولا تلقي به في هوة التفكيك؛ بل تتوجه نحو اهتمام الإنسان بأخيه الإنسان الذي حصل بامتياز لعصر الرسول ﷺ وصحابته رضوان الله عنهم. إن الملك أو السلطان أو الأمير أو الرئيس أو الحاكم أو القائد هو ما أضاف إلى المواطن وما أفاض في الوطن، يقول ابن خلدون: "اعلم أن مصلحة الرعية في السلطان ليست في ذاته وجسمه من حسن شكله أو ملاحه وجهه أو عظم جثمانه أو اتساع علمه أو جودة خطه أو ثقب ذهنه وإنما مصلحتهم فيه من حيث إضافته إليهم".<sup>(١)</sup> وهذا القول المستقيم والفخيم ينطبق أيضاً على النخبة تجاه السلطة والعامة، كما ينطبق على العامة تجاه السلطة والنخبة؛ فالكل سواء في الإضافة والإفاضة حسب المكانة، حتى يكون الكل سواء في العدالة والاستطالة من غير استمالة قد يعقبها استكانة.

تعد التنمية المركبة وسيلة نبيلة للحفاظ على نبالة الوطن ونبل المواطن، وحمایتهما معاً. قال كونفوشيوس: "إنك لو أبدت رغبة صادقة بالخير؛ فإن شعبك سيكون خيراً صالحاً أيضاً. إن فضيلة واستقامة الأمير كالريح، وفضيلة واستقامة الشعب كالعشب، ومن طبيعة العشب أن ينحني عندما تهب عليه الريح".<sup>(٢)</sup> فالوطن لا يكون بخير إذا كان الحاكم والشعب في مفترق طرق؛ لأن الوصول إلى الهدف الإنمائي سيكون صعباً وشاقاً ومتأخراً، وربما لن تتحقق السعادة. يتطلب اختصار الطريق بناء طريق جديد يجعل معالم التنمية واضحة الأهداف؛ ما يستدعي وجود الحاكم والشعب معاً في صف واحد مرصوص، فلا يبتعد الحاكم عن الشعب فتبتعد رؤاهما وأهدافهما؛ فتختلف طريقة البناء بله طرق الهدم.

لا يكون المنتمي على الصورة التي بسطناها آنفاً إن هو عاش في بيئة مصابة بداء الاختزال، وهو يرى أن السلطة كانت سبباً عذاباً فيما آلت إليه أحواله وأوضاع وطنه من تزلف إنساني وتخلّف

١- مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون، مرجع سابق، ج ١، ص ١٨٨.

٢- أديان العالم: دراسة روحية تحليلية معمقة لأديان العالم الكبرى توضح فلسفة تعاليمها وجواهر حكمتها، هوستن سميث، ترجمة سعد رستم، حلب، دار الجسور الثقافية، ط ١، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م، ص ٢٧٥.



كيف يُصنعُ المواطنُ المنتمي والحامي للوطن؟ ...

إنمائي؛ بحيث إن التخلف الإنمائي لا يصنع وطنًا طيبًا، والتزلُّف الإنساني يجعل الإنسان منافقًا ينافق من يرافقه؛ لا سيما أن النفاق خصلة غير رفيقة بالحيط الذي يعيش فيه المرافق إن أتيحت لهذا المنافق فرصة للغدر والطعن في الظهر.

والمنشود من المحصول أن التنمية المركبة نسق متسق ورتق لما انفتق. إن التنمية المركبة بوصفها حماية للمواطن هي وسيلة أصيلة لحماية الأوطان من الافتتان بالشيء والمعرفة، ولتجنب الفتن التي تخرج من عباءة الدين المرقعة. علاوة على أن التنمية المركبة تستهدف تحصيل العدالة بوصفها مدخلًا مهمًا لرد الحقوق إلى أصحابها الذين هم أنفسهم حماة الوطن، إلى جانب تفعيل الدين في التنمية حتى لا يكون سببًا في التطرف وتخريب الأوطان. إن إشباع طموحات المواطن (=س، ع، ن) هي ما تحفظ الوطن وتحميه من التمرد عليه؛ لأنه يحتضن هذه الطموحات ويرعاها؛ حيث "إن أفضل وسيلة للمحافظة على النظام العام على أفضل وجه لا تكون -بل لا يمكن المحافظة عليه- إلا عندما تتوفر فيه الوسائل التي تتيح للبشر العمل لتحقيق مطامحهم. وهذا ليس حكمًا أخلاقيًا، أو بالأحرى ليس مجرد حكم أخلاقي، بل إنه يكاد يكون قانونًا علميًا للتنظيم الاجتماعي".<sup>(١)</sup>

## ثانيًا: ما المنتمي؟ ومتى ينتمي ويحمي؟

### ١- ما المنتمي والحامي؟: إنا نخدمكم فانبهوا إلينا

المواطن المنتمي هو مواطن مسؤول يعيش لهدف نبيل؛ بحيث إن سلوكه الديني والدنيوي المتوازن يتطور داخل محيط المسؤولية الملقاة على عاتقه، وذلك في إطار ما يؤديه من واجبات وما يحصل عليه من حقوق. إن مسؤولية المنتمي تجعل للحياة لها معنى في تصرفاته وتوجهاته؛ فيراها ذات قيمة تحتزن بداخلها فائدة، فيتطلع إلى عيش إيجابياتها ونفث سلبياتها حتى تحتفي ولا تبين. ومن ثم فإن المواطن المنتمي هو إنسان هادف يستهدف هدفًا نبيلًا إن استطاع إلى ذلك سبيلًا؛ لأن "حب الوطن لا يدخل في إطار التكليف الشرعي، ولا يترتب عليه ثواب أو عقاب، ولا مدح أو ذم، ولا يؤاخذ عليه المسلم إذا تعارض مع الحب الشرعي، أو أدى إلى تضييع واجب أو حق

١- لماذا يتمرد البشر؟، تيد روبرت غير، ترجمة مركز الخليج للأبحاث، دبي، مركز الخليج للأبحاث، ط ١، ٢٠٠٤م، ص ٢١.

شرعي، أو فعل محرم).<sup>(١)</sup>

المتنمي هو الذي ينتمي انتماء طبيعياً إلى جنس الإنسان وحس الأرض وهمس الدين، من غير اختزال الإنسان في سلطة أو نخبة بحيث تُستبعد العامة بغير وجه حق، أو اختزال الدين في جماعة يتبعها المواطن ويتعصب لها فتكون وبالأعلى على المواطن والوطن معاً إذا اعتلت إنسانياً وفشلت إنمائية، أو اختزال الأرض في ملكية ينتفع بها كبيرهم ولا يفيد منها صغيرهم؛ بحيث إذا تبدلت السلطة أو النخبة تبدل انتماءه، وإذا نكست الجماعة أو ارتكست خالف غيره وإن كانوا على حق، وإذا فسدت ملكيته أو أفلست نكر ما جادت عليه الأرض وكفر بأنعمها.

المتنمي هو الذي يحب وطنه ويتفاني في خدمته ويسعى قصاره إلى تنميته. إن المتنمي هو الذي ينمي وطنه سواء أكان سلطة أم عامة أم نخبة؛ حيث إن الانتماء يتشوّف إلى الإنماء؛ بينما الإنماء يجعل الانتماء فاعلاً وعاقلاً؛ فهو فاعل من حيث العطاء وعاقِل من حيث الوفاء، وأن يكون معطاءً لوطنه وأكثر وفاءً له. ويعني الانتماء أيضاً "المشاركة الفعالة مع الآخرين على التعاون معهم لرفع مستوى الإيجابيات الذاتية والسياسية والاقتصادية للفرد والوطن، والعمل على إيجاد المشكلات وكيفية حلها وإدارتها".<sup>(٢)</sup>

المتنمي هو من يتواصل مع الآخرين ولا يفصل نفسه عن أبناء وطنه؛ فلا يخالفهم في الانتماء الوطني والأنطولوجي، وإن اختلف معهم في الابتغاء الديني أو الإيديولوجي. قد يحصل تناصل في الابتغاء بين المواطنين المتعددين دينياً؛ ولكن المتنمي العاقل يرى أن الضرورة المجتمعية تستدعي حصول تواصل في الانتماء لحفظ الوطن من الفتن؛ حيث يعد "حفظ الوطن والانتماء إليه من المقاصد الشرعية والمعتبرة، والتي تؤثر في حفظ المقاصد الضرورية، وتحقيق الأمن والاستقرار العام".<sup>(٣)</sup>

١- هل حب الوطن من الإيمان، أيمن السعداوي، شبكة الألوكة، ٢٠١٧/٢/٧، ص ٣١.

٢- حفظ الوطن والانتماء إليه بين الحريات والرفض العقدي: دراسة في ضوء مقاصد الشريعة الإسلامية، هيمن عزيز برايم، مجلة جامعة القدس المفتوحة للأبحاث والدراسات، العدد الأربعون (٢)، كانون الأول

٢٠١٦م، ص ١٦٢.

٣- المرجع السابق، ص ١٧٧.

## كيف يُصنعُ المواطنُ المنتمي والحامي للوطن؟ ...

المنتمي هو الذي يكون حبه للوطن كحبه لأسرته التي انتمى إليها منذ الطفولة، وأن الوطن ليس مجرد للعيش مع المؤتلف كما تعود على ذلك في أسرته الصغيرة، بل هو مكان للعيش مع المختلف، ومن ثم عليه أن يتدرّب على ذلك في الوطن الكبير؛ فيكون إنسانياً في حبه لوطنه حتى يتعايش مع الآخرين بإنسانية أيضاً، ويكون إنمائياً في خدمة وطنه حتى يهنأ بالعيش فلا يغدر بوطنه أو يغادره. وقد لا يعيش المواطن المنتمي عيشة طيبة إذا افتقر إلى التنمية المحترمة لانتمائيه، كما أنه قد لا يتعايش تعايشاً إنسانياً إذا افتقر إلى التنمية المتراخمة.

ومن ثم فإن المنتمي هو الذي يرى وطنه جديراً بالعيش فيه، وأنه لا يضيع حياته في العيش في وطنه، وأن الأرض التي ينتمي إليها وبيتها فيها ما يستنشق الحياة، وأن يتعشق مستقبله في هذه الأرض، وأن فيها ما يستبق الأمل، وما يستحق تكثيف العمل.

المنتمي يحترم وطنه إنمائياً ويتراحم معه دينياً؛ فهو في كل الأحوال يتراحم معه دينياً بحكم الابتغاء، ولكن قد يفقد احترامه لوطنه بحكم الانتماء إذا ما شعر أنه لا يستفيد من فوائد الإنماء وعوائده، أو إذا شعر أن العدالة الإنمائية لا تنصفه. إن الابتغاء الديني لدى المنتمي غير كافٍ للحفاظ على الوطن وحمايته؛ إلا أن الانتماء الإنمائي يجعله يشعر بقيمة الوطن، وهو يستفيد من ثرواته وإمكاناته التي جعلتها العدالة في متناوله.

المنتمي هو الذي يميل إلى التنمية التي جلبتها العدالة، وينفر من الحرمان الذي يكون عائقاً أمام تفعيل قدراته لأسباب سياسية. فإذا شعر المنتمي أنه لا يستفيد من التنمية فإنه يستحيل إلى لا منتم يتوجه نحو التطرف والإرهاب مهما كانت درجته الدينية عالية؛ حيث إن قوة الابتغاء الديني لديه لا تعني أن الانتماء الوطني سيكون أقوى هو الآخر.

المنتمي للوطن هو الذي يعيش لهدف وطني ذي معنى، يقبل الاختلاف ويتجنب الخلاف. المنتمي أيضاً هو من يؤدي واجبه، ويكافح من أجل الحصول على حقوقه من غير تحايل أو تمايل غير مشروعين؛ وإلا تحوّل إلى لا منتمٍ عنيف يتسبّب في تدمير وطنه وتخريب بيته.

## ٢- متى ينتمي للوطن ويحمي؟: ما قيمة الأرض إن لم يكن للإنسان قيمة؟

لا نعتقد أن حماية الوطن من قبل المواطن المنتمي قد تستمر من غير حصول التنمية المركّبة.

فإذا حصلت التنمية المركبة فإن المواطن يشعر بانتمائته؛ فهو ينتمي عندما يتركب بأمانة مع المنتفعين بحكم المكانة، ويشعر بأنه يستفيد استفادة مباشرة من الشيء والدين والمعرفة. من خلال التنمية المركبة يمارس هذا المنتمي واجباته في ظل الاحترام الإنمائي، ويحصل على حقوقه في ظل التراحم الإنساني. في ظل التنمية المركبة تكون الحقوق والواجبات مركبة؛ بحيث يؤدي الجميع الواجب الوطني، ويحصل الجميع على الحقوق الوطنية. إن السلطة العادلة هي التي تحفظ حقوق مواطنيها، والقائد الناجح هو الذي يرد على الناس حقوقهم. يقول القاضي أبو يعلى الفراء: "إذا قام الإمام بحقوق الأمة وجب له عليهم حقان: الطاعة والنصرة".<sup>(١)</sup>

كما هو معلوم بالضرورة أن الإشكال الإنمائي يكمن في السلطة، وذلك "لأن الرعايا تبع للدولة فيرجعون إلى خلق الدولة إما طوعاً لما في طباع البشر من تقليد متبوعهم أو كرهاً لما يدعو إليه خلق الدولة من الانقباض على الترف في جميع الأحوال وقلة الفوائد التي مادة العوائد فتقصر لذلك حضارة المصر ويذهب منه كثير من عوائد الترف وهو معنى ما نقول في خراب المصر".<sup>(٢)</sup> وعليه فإن السلطة رأس الدولة هي من تركب، وهي من تختزل. فإذا تمكنت السلطة من توزيع الشيء الذي تمتلكه توزيعاً عادلاً، حصلت العامة على حقوقها إن هي أنتجت وفعلت. ولن تستطيع هذه العامة أن تفعل قدراتها إذا لم تمنحها السلطة الحرية المسؤولة في تفعيل ما تمتلكه -الذي هو الدين- تفعيلاً أميناً؛ حتى تشعر العامة أنها تستفيد من الشيء وتفيد بالدين، علاوة على ضرورة امتلاك العامة للمعرفة عسى أن تعينها على التمييز بين الشيء والدين في حياتها الخاصة؛ فلا تخلط بينهما بالتفريط أو الإفراط.

إذاً السلطة تعين على صناعة المواطن المنتمي بتوزيع الشيء توزيعاً عادلاً، وليس الشيء وحسب، بل واجب السلطة أن تسعى إلى احترام الدين والتراحم مع العامة في توظيف الدين الذي تمتلكه توظيفاً إنمائياً. وإذاً يكون هذا الدين في خدمة حفظ الوطن؛ فإنه لا يشتط على الوطن أو ينشط ضده؛ حيث إن المزيد من التنمية هو مزيد من التعاون والحرية المسؤولة. وإذاً تحصل التنمية

١- الأحكام السلطانية، أبو يعلى محمد بن الحسين الفراء، تصحيح وتعليق محمد حامد الفقي، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، ص ٢٨.

٢- مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون، مرجع سابق، ج ٢، ص ٣٧٤-٣٧٥.



كيف يُصنعُ المواطنُ المنتمي والحامي للوطن؟ ...

المركبة؛ فإن السلطة تكون أكثر قرباً من العامة؛ حيث إن هذا التعاون يؤدي إلى تشجيع العامة على أداء الواجب وحب الوطن، وتفضيل البقاء فيه كما هو حاصل مع المواطن في ماليزيا -مثلاً- الذي لا يعاني من الخروج القسري من وطنه بحثاً عن الرزق الواسع، أو هرباً لاستنشاق هواء الحرية في مكان رائع. وعليه فإن التنمية المركبة تدفع إلى المزيد من احترام السلطة للنخبة، وتراحم السلطة مع العامة، ومن ثم تبادل الاحترام والتراحم بين العامة والنخبة.

إن استفادة المواطن من وطنه إنمائيًا يجعل منه أكثر إنسانية وإنمائية تجاه وطنه. فالتنمية المركبة تختزن بداخلها المسؤولية الفردية والاجتماعية تجاه الوطن والمواطن. فكلما كان المواطن مرتاحاً إنمائيًا، كان منتمياً ومسؤولاً؛ لأنه يشعر بقيمة الامتلاك فيجتهد في حب ما يمتلك، وفي حب الوطن الذي يحتضن ممتلكاته، ومن ثم احترام السلطة التي تسهر على أمن ممتلكاته، سواء بتسهيل سبل أداء الواجب وعدم حرمانه من تفعيل قدراته وتشغيل طاقاته، أو بحصوله على حقوقه المشروعة بإنصاف من غير إجحاف.

إن عدو المنتمي هو التخلف الحضاري والحرمان الاقتصادي والاستبعاد الاجتماعي والإهمال المنظم. وإذا رأى في وطنه هذه العلامات السيئة؛ فإنه يتخذ وطنه عدوًّا فلا يحميه، ومن ثم لا يكون منتمياً، لا إنسانياً ولا إنمائيًا؛ بحيث يبحث عن فرص للانقضاض على من قصّ مضجعه، والاقتصاص ممن أنقص من قدره، والانسraq عن وطن سرق لقمته وجوعه؛ فتنتفي الطاعة في المواطن ويقل الأمن في الوطن، ويكثر التمرد على المؤسسات الحاكمة. يورد أبو الحسن بن هذيل رواية أحد عقلاء بني أمية عن زوال ملكهم، فيقول: "إنا تشاغلنا بلدتنا عن تفقد ما كان تفقده يلزمننا، ووثقنا بوزراء أثروا مرافقهم، وأبرموا أموراً أسروها عنا، وظلمت رعيتنا، ففسدت نياتهم لنا، وجذب معاشنا فخلت بيوت أموالنا، وفلّ جندنا، فزالت هيبتهم لنا، واستدعاهم أعداؤنا، فظافروهم علينا، وكان أكبر الأسباب في ذلك استتار الأخبار عنا".<sup>(١)</sup>

المنتمي هو الذي يقبل وطنه ويقبله، وإذا شعر بأن السلطة تخونه فإنه يتحوّل إلى لا منتم، لا يطبق العيش في وطنه ولا يشفق على حاله؛ فيعادي وطنه كما يعادي السلطة أيضاً، ويسلك

١- عين الأدب والسياسة وزين الحسب والرياسة، أبو الحسن علي بن عبد الرحمن بن هذيل، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ٢، د.ت.، ص ١٦٢-١٦٣.



سلوكًا عدائيًا وليس إنمائيًا. يشعر المنتمي بالخبية إذا وجد وطنه عدوًّا له يسرق منه بسمة الحياة ونضارة العيش؛ ما يؤدي به إلى الكفر بالوطن وتكفير كل من يختلف معه. فلا يكون منتميًا وطنيًا وإن بقي مبتغيًا دينيًا؛ حيث إن الابتغاء الديني -المنقوص من الانتماء الوطني- لا يحقق أهداف الإنماء الوطني وغاياته.

### ثالثًا: الدين بوصفه شريكًا ذكيًا للتنمية: كيف يُصنع المواطن المركب والمنتمي للوطن والحامي له

كما هو معلوم فإن مشكلة العالم العربي والإسلامي هي مشكلة دينية أعمق أثرًا من المشاكل الأخرى؛ لأن حقبة الدين طويلة ومسيرتها عريضة. إن فهم المواطن (=س، ع، ن) للدين فهمًا صحيحًا، يحل كثيرًا من المشاكل الإنسانية والإنمائية. عندما يفهم القوم الدين ينصلح حالهم، وإن من يفهم لا يستمر في طغيانه وعصيانته؛ فلا يعكّر على المواطن صفو حياته، ولا يدمّر الأوطان، أو يخرب بيوت أصحابها. كيف يتعامل هذا المواطن مع الدين إنمائيًا؟ كيف يستفيد منه في السوق كما يستفيد منه في المسجد؟ فالدين في زمن الرسول ﷺ كان حاضرًا في السوق؛ فأول ما قدم الرسول ﷺ إلى المدينة، بنى مسجدًا وفتح سوقًا، وكان يراقب عماله ويتفقد أحواله، ويمنع الغش والتحايل والغبن؛ فعن أبي هريرة: (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَرَّ عَلَى صُبْرَةٍ طَعَامٍ فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِيهَا، فَنَالَتْ أَصَابِعُهُ بَلَلًا، فَقَالَ: مَا هَذَا يَا صَاحِبَ الطَّعَامِ؟ قَالَ: أَصَابَتْهُ السَّمَاءُ، يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: أَفَلَا جَعَلْتَهُ فَوْقَ الطَّعَامِ كَيْ يَرَاهُ النَّاسُ؟ مَنْ عَشَّ فَلَيْسَ مِنِّي).<sup>(١)</sup> ومن ثم فإن الدين ليس في منأى عن السوق إذا وجدت سلطة تنظمه مؤسسيًا وتقيمه دينيًا.

هذا الاختلاف في توظيف الدين في التنمية، تحوّل إلى خلاف مؤسسي مأسوي ينسف كل محاولة جادة وإن أتت مختلفة عما درج عليه الخلاف المؤسسي الميؤس منه؛ حتى أنه بات لا يلقي السمع إلى الاختلاف بصفته مجرد وجهة نظر قد تكون مخطئة، وقد تكون محقة؛ ما جعل المواطن يشعر بالاستبعاد لما يمتلك من دين؛ فلا يرى شيئًا في التنمية يمت للدين بصلة؛ تنمية غريبة على بيئته تتوجه نحو إفساد حياته وأسرته ومجتمعه، وأنه لا فرق لديه بينها وبين التخلف كونها تنمية

١- أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب قول النبي صلى الله عليه تعالى وسلم من غشنا فليس من، رقم ١٠٢، ٦٩/١.

كيف يُصنعُ المواطنُ المنتمي والحامي للوطن؟ ...

مختزلة في شيء ينتفع به مالك الشيء بحكم القيادة، أو مالك المعرفة بحكم الريادة. إن "الديمقراطية لا تصبح أكثر وظيفة كلما صارت المجتمعات أكثر تعقيداً واختلافاً. في الواقع تفشل الديمقراطية عندما يتجاوز الاختلاف في المجتمع حدًا معيناً".<sup>(١)</sup> وعندما تفشل الديمقراطية تتفكك الأوطان.

وإن بدا الدين يشقُّ طريقه إنمائيًا بحضوره المحتشم والتابع في شكل مصارف إسلامية لأسباب مادية نفعية لا يعارضها الاختلاف المؤسسي الذي يرى فيها مصلحة ومنفعة لجميع الأطراف بشكل متباين؛ إلا أن المصارف الإسلامية بمفردها لا تكفي، وليست تعني الاقتصاد الإسلامي كما يشاع حولها ويروج لها؛ بحيث إن توظيف الدين في التنمية اختزل في المصارف الإسلامية، وعُدَّ أنه الاقتصاد الإسلامي كله. بينما المواطن يتشوّف إلى تنمية فيها روح الدين، ليس على مستوى الحلال والحرام وحسب، ولكن على مستوى الرفق والرحمة بالمحتاجين والفقراء. وإذ يحتاج الوطن إلى مؤسسات اقتصادية عالمية ربحية ونفعية تتوجّه نحو الخارج لا شأن للدين بها إلا ما أحلَّ حرامًا؛ فإن المواطن بحاجة إلى مؤسسات إحسانية تتوجّه نحو الداخل تعطف عليه وتشفق لحاله في ظل تغوّل التنمية المعولة التي تتمسّح ببلّسم التنمية البشرية المستديمة وترتّج بسمّها؛ هذه التنمية الأعجوبة في الغرب والأكذوبة لدى العرب.

كما هو معلوم بالضرورة أن الدين الذي يدين به جل العالم العربي هو الإسلام. وإن هذا الإسلام الذي يتجاوز مع السلام لا يمكن أن يكون عنيفاً بطبعه؛ ففكرة العنف مرفوضة في الدين؛ إذ لا إكراه فيه. إن هذا اللا إكراه هو الذي يجعل الدين لطيفاً. وإذا كان المواطن لا يُكره على قبول الدين في حياته بوصفه عقيدة ونظاماً، فلماذا يُكره على قبول نماذج إنمائية تقوم على قطيعة مع الدين؟ وإذا كان في اللا إكراه لمسة حضارية؛ فإن في الإكراه مسحة بدوية. إن توظيف الدين في التنمية يعد مسلكاً من مسالك الحضارة؛ حيث إن "هناك إقراراً واسعاً بأن الدين هو أحد المميزات المركزية للمجتمعات الحضارية. ففي القرن الثامن عشر كان ميرابو الشيخ أحد أوائل منظري الحضارة. كان يقول إن الدين مصدر رئيسي للحضارة لأنه يساهم في تلطيف السلوك".<sup>(٢)</sup> فإذا

١- نهاية التاريخ، فرانسيس فوكوياما، ترجمة وتعليق حسين الشيخ، بيروت، دار العلوم العربية، ط١، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م، ص١٤١.

٢- الحضارات في السياسة العالمية: وجهات نظر جمعية وتعددية، تحرير بيتر جي كاتزنشتاين، ترجمة فاضل جتكر، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ٢٠١٢م، ص١٧.

حصل هذا التوظيف فأثّر للمواطن أن يكون عنيقاً؛ حيث إن العنف بداوة، لا سيما أن العنف يقف في الفجوة الحاصلة بين الدين والتنمية. كلما تقلّصت هذه الفجوة، قلّ العنف الاقتصادي والسياسي والاجتماعي، وتركّب الإنسان (=س، ع، ن)، وخرج من البداوة إلى الحضارة. لاسيما "أن الشر أقرب الخلال إليه -أي البشر- إذا أهمل في مرعى عوائده ولم يهذّبه الاقتداء بالدين".<sup>(١)</sup>

وإذا كانت السلطة والنخبة توظّف (الفكرة الدينية المغلوبة) في التنمية؛ فلماذا ترفض أن توظّف العامة (الدين الغالب) في التنمية؟ هذا سؤال مشروع؛ لأن العامة في ظل هذا الرفض باتت تتوجه نحو الهدم وليس البناء نظراً إلى حرمانها الاقتصادي واستبعادها الاجتماعي من المشاركة الإنمائية بما تستطيعه وتمتلكه. لماذا لا يُمنَح للمواطن فرصة المشاركة في التنمية بالأداة المشروعة والمؤسسية التي يقتنع بها؟ إن "الاستبعاد بوصفه حرماناً مستمراً وليس شأنًا عارضاً، وبوصفه أزمة متعددة الأبعاد والمكونات تنطوي على: حرمان من المشاركة في مجالات العمل والإنتاج، ومن الاستهلاك الحقيقي الذي تتطلع إليه الكثرة، ومن المشاركة في الاهتمام من الشأن العام (أو الممارسة السياسية اليومية)، وأخيراً من كثير من عمليات التفاعل الاجتماعي".<sup>(٢)</sup>

في مرابع الحضارة العربية والإسلامية لم يكن الدين في منأى عن التنمية فهما صنوان. وعندما احتكرت السلطة التنمية وفصلتها عن الدين لم تعد هناك تنمية؛ فالتوأم التنمية ينتقم لتوأمه الدين على شكل فتنة ومعيشة ضنك؛ فتصاب السلطة بمرض الطغيان، والنخبة بألم الفساد، والمواطن بضيق المعيشة وضنكها؛ فيتقاعس جميعهم عن الحماية.

إن ابتعاد الدين من التنمية فتنة، والتوظيف الخطأ للدين أيضاً فتنة؛ لأن الفتنة لا تخرج من التوظيف الخاطئ وحسب، وإنما أيضاً في فهم التوظيف بشكل خاطئ. إن للفهم فنيّات كما أن للتوظيف آليات. بمعنى أن المواطن لا يستطيع فهم الدين في أبعاده المادية إلا إذا وظّفه في التنمية وتعاطى معه. وإذا لم يوظّفه ويتعاطى معه فستتسع فجوة سوء الفهم؛ ما يعمّق من حفرة القلق والخوف من الدين. خوف يرجع إلى بيئة غير دينية؛ بيئة الغرب التي فصلت الدين عن التنمية.

١- مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون، مرجع سابق، ج ١، ص ١٢٧.

٢- الاستبعاد الاجتماعي: محاولة للفهم، تحرير جون هيلز وآخرون، ترجمة وتقديم محمد الجوهري، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ٢٠٠٧م، ص ١٢.



## كيف يُصنعُ المواطنُ المنتمي والحامي للوطن؟ ...

إن عدم الفهم لهذا الفصل بين الدين والتنمية هو الذي أساء لفهم التوظيف والشاركة في العالم العربي والإسلامي.

إن الدين يحتزن بداخله تنمية لا تُمنح إلا لمن يأتيها دينيًا؛ يفهمها دينيًا ويوظف هذا الفهم إنمائيًا. إن الدين يمارس في العبادة؛ ولكن (فهمه) يمارس في التنمية ويوظف في التنمية باعتبار الدين منظومة كلية تحقق مقاصد الدين والتنمية بشكل مستديم؛ بحيث يكون للمواطن رأي شجاع ومستطاع ومطاع في الطريقة التي ينبغي أن تكون عليها التنمية. إن "العملية التنموية في مجملها مقاصد ووسائل ومحددات؛ فالمقاصد تتعلق بالحياة الطيبة التي يطمع مجتمع ما أن يحققها لأفراده، أيًا كانت مكوناتها ومستواها؛ وقد أثبت القرآن الكريم للكافرين طيبتهم في هذه الدنيا: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَتَكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْنَعْتُمْ بِهَا...﴾. والوسائل هي جملة الترتيبات المجتمعية، والعمليات الفردية والجمعية، التي يرى المجتمع أنها ما يلزم اتخاذه للسير قدمًا نحو تحقيق تلك الحياة. والقيود هي تلك العوائق التي تقف في طريق المسير نحو الهدف، والتي لا بد من أخذها في الاعتبار، فمنها ما يمكن إزاحته أو تجاوزه، لا سيما تلك التي من صنع البشر، ومنها ما يصبح محدّدًا للمسيرة التنموية كالسنن الإلهية؛ تشريعية وطبيعية. أما الاستدامة فهي حال يرجى أن تصبح سمة للمسيرة التنموية متى تحقق شروطها".<sup>(١)</sup>

ليس مقصودنا من توظيف الدين في التنمية، أن يُحتزل الدين في المبادئ الأخلاقية، مثل (الصدق والوفاء والرفق والشفقة والإنصاف)، وليس في القيم، مثل: (الصحة والثروة والسعادة والحرية والعدالة)، وليس في الفضائل، مثل: (الحكمة والشجاعة وضبط النفس)؛ وإنما قصدنا من ذلك المنظومة الدينية الكلية بمعناها الواسع التي تشمل المبادئ الأخلاقية والواجبات والقيم والفضائل؛ أي صلة الدين وعلاقته النظرية، وكيف يعمل في الممارسة التطبيقية والعملية.<sup>(٢)</sup> لا سيما أن "الأصل الأول من أصلي علم الاقتصاد، الذي ارتبط بعلم الأخلاق وبمنظرة أخلاقية عن

١- التنمية المستدامة: تأسيس مقاصدي، محمد الحسن بريمة إبراهيم، الخرطوم، مركز التنوير المعرفي، ط١، ٢٠٠٤م، ص٤٩.

٢- نحو شركات خضراء: مسؤولية مؤسسات الأعمال نحو الطبيعة، ليزا ه. نيوتن، ترجمة إيهاب عبد الرحيم محمد، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ٢٠٠٦م، ص٢٨-٢٩.



السياسة، يشير فعلاً بهذه الطريقة إلى مهام معينة غير قابلة للاختزال بحيث يتعذر إنقاصها لعلم الاقتصاد<sup>(١)</sup>.

إن توظيف الدين في التنمية يشر بتجديد حضاري لروح المواطن التي ران عليها فساد التنمية وغبنها، لا سيما تجديد روح السلطة والنخبة التي تحتكر هذه التنمية بحكم ما تمتلكه من شيء ومعرفة. إن المواطن قد يلقي في الدين ما ينقذه من لاعدالة التنمية المادية؛ حيث إن الدين يجد حلولاً للعدالة؛ لأن العدالة شكل من أشكال الدين، وإن توظيف الدين في التنمية هو نفسه توظيف العدالة في التنمية، علاوة على أن التنمية التي لا يفيد منها المواطن تتوجه نحو تدمير البيئة والاستهانة بالدين وتضنيك المجتمع.

كيف تتغير السلطة من الأسوأ إلى الأحسن؟ ومتى لا تقف السلطة عقبة كأداء أمام التغيير الذي ترسمه النخبة المسؤولة والواعية؟ هذه أسئلة لا يفترض أن نجيب عنها بوصفنا نخبة وعامة، بل تجيب عنها السلطة نفسها، ومن ييدهم صناعة القرار؛ أما النخبة العاقلة والمسؤولة التي تهتم بقضايا الأمة، فمهمتها المساعدة على توسيع دائرة الإجابة. الحلول العميقة داخلية وليست خارجية؛ وإلا أتت سطحية. إن فشل النخبة المسؤولة في تقديم الإجابة ليس ناتجاً عن عجز، بل لأن الإجابة مسلوقة منها ومصروفة عنها.. إن الإجابة عن السؤال الأكبر والأخطر (لماذا نخاف من أنفسنا ونهجر أوطاننا؟)، ينبغي أن تأتي من الذي فرض على النخبة والعامة هذا السؤال المخيف والرجيف. إن الذي أوصل الوطن والمواطن إلى الأسوأ هو نفسه من يعيدهما إلى الأحسن. ومهمة النخبة الواعية أنها تقدم المساعدة لا غير؛ إذ لا ينبغي للنخبة العاقلة أن تحشر أنفسها في كل أمر فتذل نفسها، لا سيما إذا كانت لا تستطيعه. إن المسائل تحل في إطار الاستطاعة، بينما النخبة غير مستطاعة كونها غير مطيعة لجل أفعال السلطة السيئة، فلا تمكنها السلطة من الإجابة. إن الإرادة مسلوقة من النخبة، ومن ثم فإن النخبة مغلوقة أمام سلطة غالبية تتوجه بغلبها نحو الأسوأ، كما تتخذ من الظلم أداة سليطة؛ حيث إن الظلم مؤذن بخراب العمران على نحو ما حصل ابن خلدون وفصل. يقول خير الدين التونسي: "فرجال السياسة يدركون المصالح ومناشئ الضرر،

1- Amartya Sen, On Ethics and Economics (Oxford: Basil Blackwell Ltd, 1990), p4.

كيف يُصنَّع المواطن المنتمي والحامي للوطن؟ ...

والعلماء يطبقون العمل بمقتضاه على أصول الشريعة، وأنت إذا أحطت خبراً بما قررناه علمت أن مخالطة العلماء لرجال السياسة بقصد التعاضد على المقصد المذكور من أهم الواجبات شرعاً لعموم المصلحة وشدة مدخلية الخطة المذكورة في اطلاع العلماء على الحوادث التي تتوقف إدارة الشريعة على معرفتها".<sup>(١)</sup>

طبعاً، الظلم لا يزيحه إلا ظالم وفي الغالب يكون من السلطة فيستحيل عادلاً، والدولة لا يصلح من حالها إلا عالم وفي الغالب يكون من النخبة فيستحيل عاملاً، والتنمية لا يديرها إلا إنسان محترم وصارم وفي الغالب يكون مواطناً بسيطاً ومتعلماً من العامة فيستحيل فاعلاً. إذا نحن أمام ظلم ودولة وتنمية. إن الظلم خراب للوطن والسلطة، والسلطة تفسد التنمية بالظلم، والتنمية لا تستديم بسلطة ظالمة. إن شقاء المواطن يكمن في خراب الظلم وفساد السلطة واختزال التنمية في دائرتها المقرّبة. وهذه العالآت الثلاث: الفساد والظلم والاختزال، هي ما ينبغي الإفادة منها ومعرفة كيف تجاوزتها الأوطان التي يُحترم فيها المواطن البسيط والنشيط معاً. الظلم يكون خراباً إن لم يتحوّل إلى عدالة؛ إذ لا توجد حلول موازية للخروج من الظلم غير تعميم العدالة، والعدالة فعل لا تقدر عليه إلا السلطة التي تظهر عدالتها فيما تحصله من تنمية؛ وإلا فإن فساد القضاء يفضي إلى نهاية الدولة، وأن العامة المقهورة تسوء أخلاقها كما يستقري ابن خلدون ويفري القول: "العدل بإصلاح العمال وإصلاح العمال باستقامة الوزراء ورأس الكل بافتقاد الملك حال رعيته بنفسه واقتداره على تأديبها حتى يملكها ولا تملكه".<sup>(٢)</sup>

إن المواطن المنتمي هو المواطن الذي يُحترم دينه إنمائيًا ويُتراحم معه إنسانيًا من قبل السلطة والنخبة؛ ففي توظيف الدين في التنمية يُصنَّع المواطن المنتمي كما صنع لزمن الرسول ﷺ. لقد كان هذا المواطن -من الأنصار والمهاجرين- يرى الدين في كل مكان يقصده، سواء في المسجد أو السوق.

وعليه فهذه اقتراحات مواطن يتشوّف إلى مسؤولية السلطة ووعي النخبة قبل حصول فتنة

١- تحرير الأحكام في تدبير أهل الإسلام ويليّه مقدمة أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، بدر الدين محمد بن إبراهيم بن جماعة، مرجع سابق، ص ٣٥.

٢- مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون، مرجع سابق، ج ١، ص ٣٩.

في الوطن تنكس المواطن وتركسه. إن الحلول مركّبة بتركيب (س، ع، ن)، ولا أحد بمفرده يمتلك مفتاح الانطلاقة الإنمائية وكيفية إدارتها في غياب الإرادة الجماعية؛ لا سيما أنه "وفي الأحوال العادية، عندما يتحدى المرء الحكمة المستقرة -القائلة بأن النظام الاقتصادي والسياسي الراهن هو الوحيد الممكن- فأول رد فعل يحتمل أن تواجهه هو مطالبته بمخطط معماري تفصيلي لكيفية عمل النظام البديل... تاريخيًا هذا مضحك. متى تأتّى للتحوّل الاجتماعي أن يحدث، إطلاقاً، وفقاً لمخطط أي أحد".<sup>(١)</sup>

إن منطلقات اقتراحنا الذي نأمل أن يشاركنا فيه غيرنا، هو أن المواطن المنتمي يُصنّع على أعين السلطة العادلة والنخبة المسؤولة تجاه هذا المواطن الذي يبحث عن وطن يأويه، لا أن يُلقى في أحضان أوطان تستفيد منه سلباً في استغلاله في خراب بيته الأكبر، أو إيجاباً في إعمار أوطان الغير ممن رحّبت به مواطنًا منتمياً.

رؤيتنا أن المواطن المنتمي يُصنّع في ظلّ توظيف الدين -الذي يمتلكه- في عملية البناء بشكل مؤسسي ترعاه السلطة وتتغياه النخبة، علاوة على مستتبعاته كما سنرى، طبعاً إلى جانب توافر الشروط المسلكية التي يُصنّع من داخلها هذا المنتمي؛ فيُبدع من خارجها، وأهمها: الحريّات السياسية، والتسهيلات الاقتصادية، والفرص الاجتماعية، وضمانات الشفافية، والأمن الوقائي.

وكما بسطنا القول أعلاه؛ فإننا نمثّه أدناه بإقرارنا أن توظيف الدين في التنمية توظيفاً قد يفيد المواطن في حياته وأسرته ومجتمعه، يعد مسلكاً مذللاً وآمناً ومطمئناً لصناعة المواطن المنتمي حامي الوطن من الفتن، وذلك على النحو الآتي:

-المواطن المنتمي هو الحل وليس الدين وحسب: الدين ليس هو الحل الوحيد لتحقيق التنمية، بل هو مشارك وجزء من الحل. وإذا كنا نقصد بالدين الإسلام؛ فإن الإسلام هو الحقُّ والخير، بينما المسلم (المتدين العاقل) بوصفه إنساناً هو الحلُّ والسير؛ أي أن الحل يأتي من الذي يخطئ ويصيب؛ لأن "الخطأ يحتاج على الأقل إلى إنسان يرتكبه".<sup>(٢)</sup> وعليه فإن المواطن يفترض أن

١- مشروع الديمقراطية: التاريخ، الأزمة، الحركة، ديفيد غريير، ترجمة أسامة الغزولي، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ٢٠١٤م، ص ٢٧١.

٢- حكمة الغرب: الفلسفة الحديثة والمعاصرة، برتراند رسل، ترجمة فؤاد زكريا، الكويت، المجلس الوطني

كيف يُصنعُ المواطنُ المنتمي والحامي للوطن؟ ...

يتدرَّب على الخطأ في ساحة التنمية التي تتراحم مع الدين؛ حتى يكتسب المزيد من الخبرة فلا يقع في الأخطاء الكبرى على المدى البعيد، ومن ثمَّ يجنَّب الوطن كوارث الثورات المطالبة بحقوق ضائعة أو مؤجلة وعلى رأسها توظيف الدين إنمائيًا. وإذ غابت النصوص الدينية الصريحة في كيفية التعامل بالتنمية؛ فإن الاجتهاد هو الحل في تجاوز الأزمات.

**-المواطن المنتمي هو الحل وليست التنمية:** المواطن أولاً ثم التنمية ثانياً. وإذا يُحرَم المواطن؛ فإن التنمية تتراحم معه، وترضى بأن تشاركه في الدين الذي يمتلكه، كما رضيت بأن تشارك السلطة في الشيء الذي تمتلكه. وإذا لا تضمن التنمية في حد ذاتها مستقبلاً أفضل للمواطن؛ فإننا نعتقد أن توظيفات التنمية التي من تصنع المستقبل؛ أي أن الأشكال الموظفة من أفكار وتصورات ودين ولغة وثقافة تنهل من الإرث الحضاري، هي التي تصنع مستقبل التنمية وتجعله واضحاً. تتواجد التنمية بمواطن منتم لوطن تخدمه السلطة والنخبة؛ فالتنمية لا تأتي عبثاً من غير مواطن تحترمه السلطة وتتراحم معه النخبة. التنمية الوطنية هي صناعة مواطن مسؤول يشعر بأنه يستفيد من العدالة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية. فإذا كانت التنمية مصنوعة وقادمة من خارج الوطن ومعتمدة على الشيء الجاهز والمجهَّز، فهي ليست تنمية في متناول المواطن، ولا تصنع الإنسان المنتمي مهما أوتيت من إغراءات ووقفت على استثناءات؛ وإنما المواطن المنتمي هو الذي يوجد التنمية إنَّ هو شعر بأن الشيء الجاهز في متناوله أيضاً. فالمواطن أولاً لضمان انتمائته، ثم التنمية ثانياً للتأكد من أهمية المواطن المنتمي في عملية إعادة البناء.

**- إعادة الاعتبار الإنمائي للمواطن من طريق الدين الذي يمتلكه:** إن توظيف الدين في التنمية هو نفسه توظيف العامة في التنمية؛ فالدين أكثرية والعامة أيضاً. وإن المخاطر الكبرى التي تواجه التنمية تستدعي مواجهة الأكثرية لها التي هي العامة، وليست الأقلية -السلطة والنخبة- وحسب. ولعل وجود المخاطر واستحكامها يُستدل باستبعاد العامة والدين من هذه المواجهة. إن التوظيف الديني هنا هو محاولة جادة للمواجهة ودرأ المخاطر؛ حيث إن معظم هذه المخاطر تأتي من التجاوزات وتنوع الحرام وتداخل الحلال، علاوة على المنتجات غير البيئية وغير الصحية، إلى جانب غياب العدالة. وهذه مهمة الدين في التنمية؛ لأن هذه المخاطر تأتي من التنمية نفسها.

للثقافة والفنون والآداب، ٢٠٠٩م، ج ٢، ص ٢٦٨.



إن توظيف الدين في التنمية الذي يسبقه التعليم الديني والوعي الديني هو من قبيل تهيئة "أرضية سليمة للأشخاص لمعرفة قيم مجتمعاتهم، ورفع كفاءاتهم وقدراتهم للتمكن من كسب عيشهم على نحو حلال، واكتساب القدرة على المشاركة الكاملة في تطوير العلوم والتكنولوجيا وتحقيق المقاصد".<sup>(١)</sup>

— في توظيف الدين إنمائيًا إخمادًا للفتنة: يتضمن توظيف الدين في التنمية دعوة لإغلاق منافذ تبريرات العنف والفوضى والثورة التي تصيب الوطن والمواطن بحجة إقصاء الدين من الحياة المادية، في الوقت الذي "لا تخلو الرعية من ناسك أحق، يظن أنه يغضب للدين، فيحمله حمقه وجهله على الخروج من واجب الطاعة، فيكون أمره في الرعية أنفذ من أمر الملك في الجند".<sup>(٢)</sup> إنه بتوظيف الدين إنمائيًا يتحقق المواطن المنتمي الذي يشعر بأنه يسترد حقوقه؛ حيث إن توظيف الدين في التنمية حق مشروع يطالب به المواطن في ظل تغوّل التنمية المادية القائمة على التنافس والإلغاء والاستبعاد؛ ما يجعله محرومًا من أداء الواجب بله الحصول على الحقوق. فكلما تقدمت التنمية المادية خطوة إلى الأمام، تراجع المواطن عن انتمائه لوطنه خطوتين إلى الوراء؛ إذ في تراجعه وبأل على الوطن، وخيبة للسلطة في الأمد البعيد، وهي ترى المواطن المنتمي يعاديها بالبحث عن سلطة أخرى بديلة وعيلية، تعمّق من جراح الوطن، وتضيّق على معيشة المواطن.

— التعليم بوصفه صناعة روحية مبكرة للمواطن المنتمي: يحصل توظيف الدين في التنمية بالعلاقة المتلازمة بين التعليم والدين؛ فلا تنمية من غير تعليم يتراحم مع الدين؛ حيث إن هذين الحقلين "يقدمان ذاتيهما كمرشدين من أجل تأسيس قيمنا وشارحين لأهمية حياتنا. يجب على البحث في حقلَي العلم والدين أن يوقظ الوعي بالعالم الذي نحيا فيه، كيف يعمل، وكيف ينسجم الإنسان مع مجتمع الحياة الأوسع، والدور الذي يؤديه الإنسان في رواية الكون الكبرى، والعاقبة التاريخية للتطورات التي شكّلت منظرنا المادي والثقافي. وإلى جانب الوعي بالماضي والحاضر ينبغي

١- الرؤية الإسلامية للتنمية في ضوء مقاصد الشريعة، محمد عمر شابر، ترجمة أحمد مهدي، هرنند، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط ١، ٢٠١١م، ص ٦٥.

٢- كتاب السياسة أو الإشارة في تدبير الإمارة، ويلي النهج السلوك في سياسة الملوك، ويلي نهاية الرتبة في طلب الحسبة، أبو بكر محمد بن الحسن المرادي الحضرمي، تحقيق محمد حسن محمد حسن إسماعيل وأحمد فريد المزيدي، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، ٢٠٠٣م، ص ١٤٥.

## كيف يُصنعُ المواطنُ المنتمي والحامي للوطن؟ ...

على التعلم والدين أن يقودا المستقبل".<sup>(١)</sup> إن التعليم المزدوج الديني والدنيوي للجميع (س، ع، ن) بلا استثناء، في الداخل والخارج، يصنع مواطنًا منتميًا في مرحلة مبكرة.

– **الحرية المسؤولة:** لا يمكن توظيف الدين في التنمية أو مشاركته لها إلا بوجود حرية مكفولة ومسؤولة ل (س، ع، ن) من قبل دولة المؤسسات. فإذا كانت النخبة توظف المعرفة، والسلطة توظف الشيء؛ فلم لا يوظف المواطن الدين؟ إن توظيف الدين في التنمية هو أن تكون لهذه المشاركة قابلية إنمائية من السلطة والنخبة؛ حتى تنصف المواطن ولا تحرمه من عوائد التنمية. يقول ستيغلitzer الحائز على جائزة نوبل للاقتصاد: "التنمية هي تحويل المجتمع، هي تحسين حياة الفقراء، هي إتاحة فرصة النجاح أمام كل فرد، وهي الحصول على الخدمات الصحية والتربوية. إن هذه التنمية لن تتحقق إذا كان بضعة أشخاص فقط يملكون على البلد سياسته. ويجب أن تُتخذ القرارات بصورة ديمقراطية. وهذا يعني أن تُتخذ ليس فقط بتدخل نشيط من جانب فئة واسعة من الاقتصاديين والمسؤولين والخبراء في البلدان النامية، ولكن أيضًا بمشاركة أوسع بكثير، تتعدى الخبراء والسياسيين".<sup>(٢)</sup>

– **تنمية الوعي الإنمائي والديني:** لا يكون توظيف الدين في التنمية عملاً مشروعاً إلا عندما يمارس بأشكال مؤسسية؛ حيث إن المواطن الذي يوظف الدين في التنمية يُفترض أن يكون واعياً بمسؤولياته، وعلى السلطة أن تكون في مستوى هذه المسؤولية. إن توظيف الدين في التنمية هو مسؤولية (س، ع، ن) المركبة؛ إذ "يجب أن نكون واعين بالحاجة إلى تحقيق نمو متوازن ومتكامل. بمعنى أن عملية التخطيط والتنمية يجب أن تأخذ في اعتبارها الحاجة إلى النمو الروحي منذ البداية، وأن تتجنب تأجيلها حتى النهاية. لقد قمنا حتى الآن بتجاهل هذا المكون الهام من مكونات التطور، وخصوصاً خلال مرحلة التخطيط المبدئي. وحتى إذا ما قمنا بإدماجه فإننا نقوم بذلك بأثر رجعي أو كفكرة تطفأ على الذهن بعد الانتهاء من العمل.. أي إننا نسينا إدماج الحاجة

١- الفلسفة البيئية: من حقوق الحيوان إلى الإيكولوجيا الجذرية، تحرير مايكل زيمرمان، ترجمة معين شفيق

رومية، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ٢٠٠٦م، ج ١، ص ٢٦٣.

٢- خيبات العولمة، جوزيف إ. ستيغلitzer، ترجمة ميشال كرم، بيروت، دار الفارابي، ط ١، ٢٠٠٣م، ص ٣٤٤.

للسمو الروحي في الخطة المرسومة، فنقوم بإدماجها متأخرين استكمالاً للشكل فقط".<sup>(١)</sup>

- احترام آراء المواطن الإنمائية: توظيف الدين في التنمية يكون باحترام رأي المواطن ومشاركته في المشروعات الإنمائية المعترض عليها بيئياً ولغوياً وتربوياً وصحياً، والتي لا تنجسم مع الإرث الحضاري للأمة، الذي هو الآخر إرث السلطة والنخبة؛ إرث يركب بشكل معقد يستجيب للتحدي، ولا يختزل بشكل سهل يتماهى مع التراخي. فالرسول ﷺ كان يشاور القوم ويطلب مشورتهم، وكان يث فيهم روح المسؤولية تجاه الآخر، والمراقبة للذات، والتغيير من الحسن إلى الأحسن.

- المساواة الإنسانية بين السلطة والعامّة والنخبة: إن المساواة في التراتب من طريق التراكب تهيئ طريقاً ييسر لتوظيف الدين في التنمية، وذلك بأن تجعل السلطة والنخبة تنظر إلى الدين بوصفه حالة إنمائية مؤسسية مشروعة لا تتناقض مع الشيء والمعرفة. من "الناحية الاقتصادية، فما أحب أن أراه حقاً هو ضمان تأمين الحياة على نحو يسمح للناس بالسعي وراء أنواع من القيمة التي يعتبرون، بالفعل، أنها جديرة بأن يسعوا وراءها-على المستوى الفردي أو مع الآخرين".<sup>(٢)</sup>

- المساواة الإنمائية بين الشيء والدين والمعرفة: يحصل توظيف الدين في التنمية في ظل وجود التركيب بين (س، ع، ن)، باعتبار أن الأطراف الثلاثة متساوية، ليس في المراتب طبعاً؛ ولكن متساوية في التراتب؛ إذ في التركيب ترتيب. وهذا فعل يحققه الدين الإنمائي وهو أن يساوي بين أشياء غير متساوية في الامتلاك: الشيء والدين والمعرفة، بحيث يجعلها متساوية في التوظيف والمشاركة، بغض النظر عن حجة الفعالية؛ وإلا متى كانت النخبة والسلطة وحدها فعالة في العالم العربي والإسلامي، لا سيما أن "كلمة معنى فعالية تجنح إلى التضيق من معنى إنسانية الإنسان إلى حد ما".<sup>(٣)</sup>

#### رابعاً: خاتمة: أين الحل؟ وأنى لنا بمأسسة مشاكل الوطن وحمايته في ظل تنطع

١- الإسلام والأمة الإسلامية: خطب وكلمات مختارة، محضير محمد، بيروت، دار الفكر المعاصر، ط ١، ٢٠٠٢م، ص ٣١٠.

٢- مشروع الديمقراطية: التاريخ، الأزمة، الحركة، غريب، ص ٢٨٤-٢٨٥.

٣- تأملات، مالك بن نبي، دمشق، دار الفكر، ط ١٠، ٢٠١٢م، ص ٢٦-٢٧.

كيف يُصنعُ المواطنُ المنتمي والحامي للوطن؟ ...

## المؤسسات وتصدُّع الأساسات؟

نحن العرب؛ بيننا وبين التنمية المركَّبة أمدٌ بعيدٌ لا يطوى بُعده إلا بالاستقامة التي تجمع بين قيم العبودية وقيم الحرية؛ فتكبح الأولى جماح الثانية إنْ هي اشتطَّت أو نشطت في غير موضعها. فالتنمية دين كما يرى ابن خلدون، والتنمية إنسان كما يرى مالك بن نبي، والتنمية حرية كما يرى أمارتيا صن الحاصل على جائزة نوبل للاقتصاد؛ حيث إن القيم أن تقيم الشيء مستقيماً حتى يأتي مركَّباً ومستديماً.

بيننا وبين التنمية ليل مظلم لا ينيره إلا الوعي، ونهار مرهق لا يريحه إلا السعي؛ فأنتي لنا أن تكون لنا تنمية مستديمة، وليس للوطن مواطن منتهم يجتهد، وأرض تستثمر، ووقت يتضاعف؛ لا سيما أن التنمية تأتي بالوقت الإضافي وليس الطبيعي وحسب، فهو وحده لا يكفي. إذاً التنمية المركَّبة تقيمها أمة تحترم إنسانها، وتتراحم مع عامتها، وتفيد من أرضها، وتتحكم في وقتها، وترصص بنائها؛ لا شيء من ذلك. كما أن التنمية المركَّبة ليست لعباً أو لهواً، بل هي عتق للإنسان، ورفق بالأوطان، ورتق لما انفتق في ديننا؛ فديننا ممزق وتنميتنا مرقعة، أو كما قال القائل: نرفعُ دينانا بتمزيق ديننا؛ فلا ديننا يبقى ولا ما نرفعُ.

أين الخلل؟ أين الزلل؟ أين الحلُّ؟ أين الكلُّ؟ لا شك في أن الحلَّ يكمن في الكلِّ؛ حيث إن الجزء ليس هو الحلُّ؛ في الوقت الذي نلفي فيه أن الكلَّ جزءٌ من الحل. لقد ضاقت على المواطن الأرض بما رحبت. فالأرض بوصفها كلاً تضيق بالجزء باعتباره كلاً. فالثلاثة الذين تخلفوا عن الجهاد مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، ضاقت عليهم الأرض بما رحبت لأنهم تجزأوا داخل الكل؛ فأثروا الكلَّ أجزاء حيث كانت عاقبتهم الرفض من جماعة المؤمنين المركَّبة، واللفظ من الأرض على الرغم من وسعها.

الحلُّ يكمن في ذات المواطن المحترم وبيته. الحلُّ في نيته ومفتاحه؛ فلكل ذات نيّة يفترض أن يعيد إصلاحها، ولكل باب مفتاح يفترض صناعته. إذاً على المواطن (=س، ع، ن) أن يحمل مشاكله فوق كتفه، ويرتقي بها إلى عقله حيث الجانب المضيء فيها، هو الوعي بها، ثم يبحث عن حل لها عبر السعي إليها، والوقوف عليها من غير ملل أو كلال؛ بمعنى مأسسة المشاكل تمهيداً



للبحث في أسبابها والحفر في علّاتها؛ أي أن توفر السلطة لمشاكل الأمة مؤسسة استراتيجية وتخطيطية وبحنية تحيط بالتحديات وتحصرها، أملاً في حصارها للتغلب عليها، وتحويل السلبيات إلى إيجابيات. إن السلبيات ليست كلها قاتلة، بل هي جزء من اللعبة الإنمائية، ومن يحسن التعامل معها بدكاء عقل ونقاء قلب؛ فإنه يحوّلها من سلبيات قاتلة إلى إيجابيات فاعلة؛ حيث إن مسالك الوعي والمسؤولية والانتماء الإنساني المركّب، تدلّل السبيل إلى ترجمة السلبيات إلى إيجابيات، والقضاء ما أمكن على ما استعصى منها وعصى. إن السلطة مطالبة بتوظيف ذكائها المؤسسي في تحويل رذيلة المواطن إلى فضيلة. لقد "كان (مكيافيلي) يسعى إلى خلق نظام سياسي جيد من رذالة الإنسان أو شره، فهذه الرذيلة أو الشر يمكن أن تخدم غايات طيبة إذا مرت من خلال مؤسسات مناسبة".<sup>(١)</sup>

إن مفاتحنا في ذواتنا؛ ولكن مع ذلك نعتقد أن مفاتحنا ينبغي أن تكون من صنع أيدي المواطن المنتمي النزيه الأمين أيضاً، وإلا فلا تكون في أيدي السلطة والدولة. وإذا ضاعت أو انتقلت إلى أيدي الغير ضاع البيت واستيبح الوطن. يقول كونفوشيوس: "إذا لم يكن بمقدور المرء أن يشرف اسم والديه، فعليه أن لا يجلب لهما الحزي والعار، على الأقل".<sup>(٢)</sup> فالذي يتشدّد يمهّد للغريب الطريق إلى اغتصاب الوطن؛ فيؤذي أسرته ويدمي وطنه، ومن ثم يجلب له التخلف والدمار؛ بينما المواطن المنتمي المركّب هو صناعة احترام وتراحم، وليس صناعة انتقام واصطدام؛ فلنجنّب المواطن الاصطدام بالبيئة حتى لا يفسدها، ومن الارتطام بالدين حتى يحافظ على سماحته، ومن الانتقام من الإنسان حتى يحافظ على إنسانيته نقيّة وتقيّة.

الوقت كله ضائع من الإنسان المستخلف إن لم يكن مصحوباً بقيادة الخلق نحو الخلق والابتكار والإبداع. كما أن الوقت ضائع من الإنسان المستخلف إن لم يكن مصحوباً بعبادة الخالق؛ وكلاهما جهدان عظيمان؛ الاقتراب من الخلق والابتكار، والتقرب إلى الله الخالق. التنمية المركّبة تخاطب المستقبل وتطلبه حثيثاً، ومن يخاطب المستقبل عليه أن يكون قد خطب ود الحاضر؛

١- نهاية التاريخ، فرانسيس فوكوياما، مرجع سابق، ص ٢٠٩.

٢- الفكر الشرقي القديم وبدايات التأمل الفلسفي، جمال المرزوقي، القاهرة، دار الآفاق العربية، ط ١، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م، ص ٢٥١.

كيف يُصنَعُ المواطن المنتمي والحامي للوطن؟ ...

فأين حاضر المواطن حتى نتحدّث عن مستقبل الوطن؟ أليس بذل الجهد بوعي وسعي يدلّان الطريق نحو مستقبل آمن للوطن والمواطن؟

وفقاً لما قرّرنا؛ فقد استقرينا من البحث النتائج الآتية:

١- التنمية الشيئية الجاهزة وغير العادلة ليست هي الحل لمشاكل الوطن والمواطن، وليس فيها ما يشجع المواطن تشجيعاً ذاتياً على حماية الوطن، لأنها تجعل المواطن شيئاً جاهزاً هو الآخر من غير إحساس ولا انتماء؛ إلا أن التنمية المركّبة مسؤولة عن صناعة المواطن المنتمي انتماء يخلو من النفاق والخوف والاستكانة؛ حيث من هذه المخاوف قد تنبع عناصر الخوف الأخرى على شكل دفاع عن النفس كاستبداد السلطة، وتطرّف النخبة، وعنف العامة؛ وكل ذلك يصيب الوطن بشروحه وشرارته.

٢- إن تنامي الحرمان والتشدد في ظل التنمية الشيئية المختزلة في السلطة والنخبة، يزيد المواطن المنتمي يقيناً بأهمية توظيف الدين في التنمية أكثر من أي وقت مضى؛ لأن التنمية التي تقصي الدين لا تولي للحلول الدينية أهمية، ولا تكون سبباً في الإقبال على حب الوطن وحمانيته؛ بينما التنمية المتراحمة مع الدين تحل الكثير من مشاكل الحرمان والتشدد، لأن الدين بوصفه منظومة كلية يتوجه نحو حفظ المواطن والوطن؛ حيث إن التشدد مواطن والحرمان مواطن أيضاً. إن توظيف الدين في التنمية يصب في مصلحة المواطن والأرض، في عصر يتمرّد فيه المواطن اللامنتمي على دينه، ويُنتقص وطنه من أطرافه.

٣- إن في احترام السلطة والنخبة (=س، ن) للعامة (=ع) ضمناً بأن يؤتي الدين أكله في التنمية المركّبة؛ لأن في هذه الحالة تكون المعرفة في خدمة الدين، كما يكون الشيء أيضاً في خدمة الدين. ومن يخدم الدين (=د) فهو يخدم العامة (=ع)، لا سيما أن التركيب بين (س، ع، ن) يضمن عدم حصول العنف في الدين؛ لأن التفكيك صناعة مواطن لا يتراحم مع الدين ولا يحمي وطنه، والتركيب صناعة دين يتراحم مع المواطن. وإذ ندعو إلى توظيف الدين في التنمية؛ فلأننا نحرص على إبعاد الدين من العنف الذي يقوم به مواطن عاطل غير عاقل. إن التوظيف الإنمائي للدين في التنمية هو دعوة حضارية عربية وإسلامية. وإن الامتناع عن ذلك هو امتناع عن التحضر،

ومن ثم العيش الضنك في بداوة متشددة.

٤- قد يكون (حب الوطن من الإيمان) كما جاء في الأثر؛ إلا أن حب الأوطان أيضًا من الإحسان، وحب الوطن من التنمية كذلك؛ حيث إن التنمية إحسان للوطن وحب له وذود عنه. وإذا لا يحصل الإحسان للإنسان؛ فإنه لا يحصل الإحسان للأوطان. وكما هو معلوم فإن الوطن أرض يُعبر عنها بالسيادة، والسلطة إنسان يُعبر عنه بالقيادة؛ فالسيادة ثابتة، والقيادة متبدلة؛ حيث إن التبدل يكون في خدمة الثابت. مثل هذه القيادة ينبغي أن تحسن للمواطن حتى تحافظ على السيادة التي تجاهر بحبها والتفاني في خدمتها. فإذا كانت القيادة (=السلطة) ضد العامة؛ فإن السيادة لن تستقر، والقيادة لن تستمر. وإذا استمرت السلطة على هذا المنوال الخاطيء، تكون قد أفستت في الأرض والمؤسسات، وأسأت للمواطن والوطن. إن الإحسان شكل أعلى من أشكال العدالة التي هي من اختصاص القيادة للحفاظ على سيادة الوطن وسادته من سلطة ونخبة وعامة. يفترض أن تكون السلطة - بوصفها فردًا أو أفرادًا نافذين في المجتمع - وقيّة للقيم المجتمعية باعتبار أن "القيم في الواقع عادات اجتماعية وليدة اتفاق بين الفرد والمجتمع، فالمجتمع يرفده ببعض الفوائد كالأمن والإحساس بالانتماء، وربما الشعور بالتفوق، إذا اتفق لشخص ما، أصابه الحظ، وقُذِف إلى منصب قيادي، ولكن المجتمع يطالب مقابل هذا أن يضع الفرد بعض القيم الاجتماعية قبل الفائدة الذاتية. وفي هذه التضحية يصبح حياة الفرد معنى إذ تجعله يؤمن بالقيم الخارجية".<sup>(١)</sup>

٥- إن تتبّع أثر السُنّة النبويّة فيما يتعلق بتربية المواطن على حب وطنه والإخلاص له وتنميته وإعمارهِ وحمايته، نراه يحقق الكثير من الفوائد في مجتمعات تعاني من الانقسامات في الداخل، والتهديدات في الخارج؛ ففي السُنّة النبويّة علامات واضحات تُخبر بأهمية التلاحم لصناعة الملاحم التي تحمي الوطن، علاوة على التضامن والإخاء والإيثار في التحام أوطان ممزقة، والاهتمام بمواطن محروم.

أما عن التوصيات؛ فنجملها في القول معقوله ومنقوله: ما يمنعا أن نكون أمة مركبة تتقدم فتننصر، وليس أمة مختزلة تتأخر فتنتحر؟ بينما لهذه الأمة دروس وعبر تستقيها من السُنّة النبويّة؛

١- ما بعد اللامنتمي، كولن ولسن، نقلها إلى العربية يوسف شرورو وعمر يمق، بيروت، منشورات دار الآداب، ط ٥، ١٩٨١م، ص ٢٧.

كيف يُصنعُ المواطنُ المُنتمي والحامي للوطن؟ ...

إذ فيها ما يحمي أوطانها وينجيها من ويلات المواطن اللامتمي، وعلى رأسها طاعة الرسول ﷺ في كل صغيرة وكبيرة ما أمكن ذلك. إن في قول الرسول ﷺ عبرة لمن يعتبر؛ فلا ينتظر أحدنا للغد حتى يأتيه النصر من غير أن يبذل أدنى جهد؛ ففي كل غدٍ غدر لا ينفع معه ألف عذر. فعن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: (إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ، كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَى قَوْمًا فَقَالَ: يَا قَوْمُ إِنِّي رَأَيْتُ الْجَيْشَ بَعِثَنِي، وَإِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْعُرْيَانُ، فَالْتَّجَاءُ، فَأَطَاعَهُ طَائِفَةٌ مِنْ قَوْمِهِ فَأَذْجُوا، فَانْطَلَقُوا عَلَى مَهْلِهِمْ فَتَنَجَّوْا، وَكَذَّبَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ فَأَصْبَحُوا مَكَانَهُمْ، فَصَبَّحَهُمُ الْجَيْشُ فَأَهْلَكَهُمْ وَاجْتَاكَهُمْ، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ أَطَاعَنِي فَاتَّبَعَ مَا جِئْتُ بِهِ، وَمَثَلُ مَنْ عَصَانِي وَكَذَّبَ بِمَا جِئْتُ بِهِ مِنَ الْحَقِّ).<sup>(١)</sup>

١- رواه البخاري في صحيحه، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ، رقم ٧٢٨٣، ٩/٩٣.



### قائمة المصادر والمراجع

- اجتهاد الرسول ﷺ، نادية شريف العمري، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط ٢، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م.
- الأحكام السلطانية، أبو يعلى محمد بن الحسين الفراء، تصحيح وتعليق محمد حامد الفقي، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.
- أديان العالم: دراسة روحية تحليلية معمقة لأديان العالم الكبرى توضح فلسفة تعاليمها وجواهر حكمته، هوستن سميث، ترجمة سعد رستم، حلب، دار الجسور الثقافية، ط ١، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.
- الاستبعاد الاجتماعي: محاولة للفهم، تحرير جون هيلز وآخرون، ترجمة وتقديم محمد الجوهري، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ٢٠٠٧م.
- الإسلام والأمة الإسلامية: خطب وكلمات مختارة، محضير محمد، بيروت، دار الفكر المعاصر، ط ١، ٢٠٠٢م.
- تأملات، مالك بن نبي، دمشق، دار الفكر، ط ١٠، ٢٠١٢م.
- تحرير الأحكام في تدبير أهل الإسلام ويلييه مقدمة أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، بدر الدين محمد ابن إبراهيم بن جماعة، تحقيق أحمد فريد المزيدي ومحمد حسن إسماعيل الشافعي، بيروت: دار الكتب العلمية، ط ١، ٢٠٠٣م.
- التنمية المستدامة: تأسيس مقاصدي، محمد الحسن برمة إبراهيم، الخرطوم، مركز التنوير المعرفي، ط ١، ٢٠٠٤م.
- الجامع الصحيح وهو سنن الترمذي، أبو عيسى الترمذي، تحقيق محمود محمد محمد حسن نصار، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.
- الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير)، محمد ناصر الدين الألباني، بيروت، المكتب الإسلامي، ط ٣، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
- الحضارات في السياسة العالمية: وجهات نظر جمعية وتعددية، تحرير بيتر جي كاتزنشتاين، ترجمة فاضل جتكر، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ٢٠١٢م.
- حفظ الوطن والانتماء إليه بين الحريات والرفض العقدي: دراسة في ضوء مقاصد الشريعة الإسلامية، هيمن عزيز برلم، مجلة جامعة القدس المفتوحة للأبحاث والدراسات، العدد الأربعون (٢)، كانون الأول ٢٠١٦م.

## كيف يُصنَعُ المواطنُ المنتمي والحامي للوطن؟ ...

- حكمة الغرب: الفلسفة الحديثة والمعاصرة، برتراند رسل، ترجمة فؤاد زكريا، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ٢٠٠٩م.
- خيبات العولمة، جوزيف إ. ستيجليتز، ترجمة ميشال كرم، بيروت، دار الفارابي، ط١، ٢٠٠٣م.
- الرؤية الإسلامية للتنمية في ضوء مقاصد الشريعة، محمد عمر شابر، ترجمة أحمد مهدي، هرنندن، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط١، ٢٠١١م.
- سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، محمد ناصر الدين الألباني، الرياض، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.
- سنن أبي داود، أبو داود سليمان السيجستاني، إعداد وتعليق عزت عبيد الدغاس وعادل السيد، بيروت، دار ابن حزم، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.
- ١٨- صحيح الأدب المفرد للإمام البخاري، محمد ناصر الدين الألباني، الرياض، مكتبة الدليل، ط٤، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.
- صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري، حقق أصولها وأجازها الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز، طبعة محققة على عدة نسخ وعن نسخة فتح الباري، القاهرة، المكتبة التوفيقية، د.ط.، د.ت.
- صحيح مسلم بشرح الإمام يحيى بن شرف النووي، مسلم بن الحجاج، ضبط محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت، دار الكتب العلمية، ط٢، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.
- عين الأدب والسياسة وزين الحسب والرياسة، أبو الحسن علي بن عبد الرحمن بن هذيل، بيروت، دار الكتب العلمية، ط٢، د.ت.
- الفكر الشرقي القديم وبدايات التأمل الفلسفي، جمال المرزوقي، القاهرة، دار الآفاق العربية، ط١، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م.
- الفلسفة البيئية: من حقوق الحيوان إلى الإيكولوجيا الجذرية، تحرير مايكل زهرمان، ترجمة معين شفيق رومية، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ٢٠٠٦م.
- كتاب السياسة أو الإشارة في تدبير الإمارة، ويليه النهج السلوك في سياسة الملوك، ويليه نهاية الرتبة في طلب الحسبة، أبو بكر محمد بن الحسن المرادي الحضرمي، تحقيق محمد حسن محمد حسن إسماعيل وأحمد فريد المزدي، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ٢٠٠٣م.

- لماذا يتمرد البشر؟، تيد روبرت غير، ترجمة مركز الخليج للأبحاث، دبي، مركز الخليج للأبحاث، ط ١، ٢٠٠٤م.
  - ما بعد اللامنتمي، كولن ولسن، نقلها إلى العربية يوسف شرورو وعمر يمق، بيروت، منشورات دار الآداب، ط ٥، ١٩٨١م.
  - مشروع الديمقراطية: التاريخ، الأزمة، الحركة، ديفيد غريير، ترجمة أسامة الغزولي، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ٢٠١٤م.
  - مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط ١، ١٩٩٩م.
  - نحو شركات خضراء: مسؤولية مؤسسات الأعمال نحو الطبيعة، ليزا هـ. نيوتن، ترجمة إيهاب عبد الرحيم محمد، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ٢٠٠٦م.
  - نهاية التاريخ، فرانسيس فوكوياما، ترجمة وتعليق حسين الشيخ، بيروت، دار العلوم العربية، ط ١، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.
  - هل حب الوطن من الإيمان، أيمن السعداوي، شبكة الألوكة، ٢٠١٧/٢/٧م.
- Amartya Sen, On Ethics and Economics, Oxford: Basil Blackwell Ltd, 1990, p4. 32-